الطبعة 9

اخْلَعَ حذاءَك

ياسر حارب



مُقدّمة من باولو كويلو

مدارك

اخلع حذاءك

الكتاب : اخلع حذاءك

المؤلف : ياسر حارب

التصنيف : اجتماعي

الناشر : دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى : يناير/ كانون الثاني 2015

الطبعة التاسعة: سبتمبر / أيلول 2015

رقم طلب إذن الطباعة: 24289

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب : ISBN: 978-9948-466-39-0

مصممة الغلاف : حِصة الرَّاطُوق hessa_alratouq@hotmail.com

طبعت في الدار العربية للطباعة والنشر



Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر
www.mdrek.com read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates
P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

Madarekpublishing @mdrekpublishing www.mdrek.com Madarek PH madarekpublishing

ياسر حارب

اخلع حذاءك

المحتويات

إلى أبنائي سعيد وعمر وعبد الله.. وإلى أبناء وبنات جيلهم، حاولتُ أن أحكي لكم عن أجدادكم، وعنّا.. نحن أبناء آخر جِيل يبدأ سرد حكاياته بـ «كان يا ما كان».

حاولنا أن نُسابق الزمن؛ فغَلَبنا.. تصالحوا معه، ولا تنسوا أن تختاروا أحذيتكم بعناية لتستمتعوا بالحياة، فالسعادة أغلى من أن نؤجلها ليوم آخر.

مقدمة من: باولو كويلو[1]

أذكر في بداية علاقتي به أننا كنا في الصحراء، كان يقود سيارته في الليل دون دليل، لكنه بدا وكأنه يقود على الشارع العام. سألته: «كيف تعرف أن هذا هو الطريق الصحيح؟»، فأجاب: «لا أعرف ذلك، لكنني أشعر به.. الصحراء تدلك على الطريق الصحيح إذا أنصتَّ باهتمام».

كان حينها، وما يزال، محبًّا للحياة، متسائلًا، باحثًا عن الحكمة. يؤمن بالإشارات، ويحاول قدر المستطاع أن يصغّي قلبه؛ حتى يفهمها.

هو ابن الصحراء والمدينة، تعلم من الأولى احترام هويته، ومن الثانية محبة الناس مهما اختلفت معتقداتهم، فالبشر في نهاية المطاف تجمعهم المحبة.

يوازن بين العقلانية والمثالية، فكل الرسالات الدينية،

---

(1) الروائي والأديب البرازيلي العالمي الشهير، صاحب الرائعة العالمية «الخيميائي»، وروايات أخرى كثيرة.

حسبما يقول، مثالية في دعواتها، لكنها عقلانية في توقعاتها. فعلى رغم أن الخالق يدعو الناس إلى التمسك بالأخلاق والفضيلة، فإنه يعلم أنهم لن يفعلوا ذلك، إلا قليلًا منهم، لذلك فتح لهم أبواب التوبة، ومنحهم بركاته برغم أنهم لا يلتزمون بمجمل تعاليمه.

يُشجع الناسَ على النهوض والعمل وتغيير أحوالهم بأنفسهم دون أن ينتظروا من يأخذ بأيديهم إلى الطريق الآمنة. روى لي مرة هذه القصة:

«يُحكى أن رجلًا كان يملك بستانًا مليئًا بكروم العنب، إلا أن أبناءه كانوا لا يُحبون الزراعة، وكلما حاولوا أن يعملوا في التجارة خسروا أموالهم. كبر أبوهم ومرض ولم يستطع أن يهتم بالبستان؛ فبدأت الكروم تذبل وتجف. وقبل أن يتوفى أخبرهم أنه ترك لهم كنزًا من الذهب مدفونًا تحت إحدى أشجار الكرم. وما إن واروه الثرى حتى انطلقوا يحفرون البستان ويزيلون الطين المتراكم على جذور أشجاره. بعد انقضاء عدة أشهر، بدأ البستان يستعيد نضارته، وبدأت الكروم تؤتي أُكُلها.

شَرَع الأبناء يقطفون الغلّات ويبيعونها في السوق إلى أن أصبحوا من أشهر تجّار العنب. لقد كان الكنز الحقيقي هو حقلهم. إذ صاروا، من حيث لا يشعرون، يزرعون ويقطفون حتى أصبحوا من كبار تجّار السوق. كذلك هي الحياة، كلما حاولنا اكتشاف شيء فيها تَفَتّحَت لنا أسرارها».

يكتب عن التنوير والإنسان، عن العقلانية والأحلام، عن اللّحظة الآنية التي لا يسبقها شيء، ولا يعقبها شيء.. يحرص على أن يعيش «لحظة الآن» لأنها الحقيقة المُطْلقة، كما يقول.

قلتُ له قبل سنوات إن مهمته الحقيقية تكمن في الكتابة، فالعالم يريد أن يعرف عن ثقافته العربية، لكنه لا يجد من يخاطبه، فعكف على تطوير نفسه، وشحذ قلمه حتى يؤدي رسالته بوقار وأمانة. طلبتُ إليه أن يكتب قصصًا قصيرة، لكنه رفض حينذاك. لم أسأله لماذا، وبعد أن انتهى من كتابتها قلتُ له إنه استغرق وقتًا طويلًا، فرد علي: «لم أكن جاهزًا حينها للكتابة»، فقلتُ له وما أدراك متى تكون جاهزًا؟ فأجاب: «يا صديقي، الكتابة مثل الحب؛ يأتيان في أوانهما دائمًا».

تحدثنا عن السعادة، فقال إنها أكثر ما يتمناه الناس ولكنهم قلما يجدونها؛ لأنهم مشغولون بالبحث عنها بدلًا من تأمّلها. ثم ختم كلامه: «إن الخوف من فقدان السعادة هو أحد أسباب غيابها من حياتنا».

ياسر كاتب مُغامر، لا يكتفي بإلهامنا، بل يحملنا معه في مغامراته العقلية. ستكون له مكانة في عالم الأدب قريبًا إذا ترك الأشياء الأخرى التي تشغله، ووضع قلمه حيث يضع قلْبه. سأقرأ له دومًا لأنه يكتب بشجاعة.

مقدمة المؤلف

كُنتُ قد عزمتُ، بعد أن كتبتُ روايتي «العبيد الجدد» على ألا أنشر كُتُبًا ذات مواضيع متنوعة، فيها كثير من التأمل والملاحظة والسّرد القصصي المُقْتضب. وقررتُ التركيز على فنّ الرواية، إلا أن أحدهم قال لي إن بعض القراء قد يستصعبون قراءة رواية كاملة من الغلاف إلى الغلاف، أما الكتب التي تشبه هذا فيمكن لهم أن يفتحوا أي موضوع فيها ويقرؤوا مباشرة، لأن موضوعاتها غير مرتبطة بعضها ببعض، ولا يمنع ذلك من الاستمرار في كتابة الرواية.

فجاء هذا الكتاب، وهو هجينٌ أدبي، فيه ما يُشبه القصة القصيرة، وفيه مواضيع تأمليّة، أُحب أن أسميها ملاحظات جديدة في دفتر قديم. إذ أجدني، لا إراديًا، أهتم دائمًا بكل ما يدور حولي، أتفكّر فيه، أحاول فهمه، ثم أنشره على الورق لأستوعبه أكثر.

لا أدعي أنّي كتبتُ قصة قصيرة، وأعترف أن القصة تُرهقني أكثر من الرواية. وبعض ما ستقرأه بعد لحظات ليس إلا تأملًا في

حكايا روياها لي جدتي وجدي من أمي عندما كنتُ صغيرًا، وبعد أن رحلا، حاولتُ أن أعيد صياغة ما سمعتُ، وأُركّبه بطريقة تناسب قارئ اليوم.

في هذا الكتاب تساؤلات كثيرة، وإجابات قليلة، فمهمة الكاتب تكمن في طرح الأسئلة الصحيحة، وفي إثارة شكوك القارئ حتى يدفعه للبحث أكثر. أما الإجابات والحلول فهي مهمة المختصين من خبراء وباحثين وأساتذة، كُلٌّ في مجاله. ولو شبّهنا القارئ - تجاوزًا - بالمريض الذي يزور المستشفى، فإن الكاتب هو الذي يُجري له الأشعة، أو يجلس في المختبر ليفحص عيّنة دمه، ثم يرفع تقريره للطبيب المختص ليعالجه.

لا بدّ أنك قرأت في الصفحات السابقة مقدمة باولو كويلو. لقد بعثتُ إليه بأجزاء مترجمة من الكتاب لآخذ نصيحته، فقام بنشر أحد النصوص على موقعه الإلكتروني، وأرسل لي ملاحظات قرّائه التي استفدتُ منها كثيرًا. وفي إحدى زياراتي إلى بيته في جنيف، قال لي إنه يريد أن يكتب مقدمة للكتاب لأنه أعجبه. شكرته على كرمه، فباولو من الأدباء العالميين الذين تأثرتُ بهم، وأثّر في حياة ملايين البشر، تمامًا مثل هنري ميلر، وميلان كونديرا، ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم وغيرهم.

أعلم أن بعضكم يتساءل الآن: لماذا أسميته «اخلع حذاءك»؟ الإجابة موجودة في الموضوع المُعنون بالعنوان نفسه،

وأظنّ أنه يُلخص ما أردتُ أن أقوله في الكتاب. لكن قبل أن أترككم مع النصوص، أحب أن أروي لكم قصة حكاها لي صديق منذ زمن طويل:

يُحكى أن ولدًا كان يعيش حياة مُرفهة في عائلة غنية. وفي يوم من الأيام قرر أبوه أن يأخذه إلى إحدى القرى النائية ليرى كيف يعيش الفقراء، فيُقدّر مُستوى الحياة التي يعيشها مع أسرته. وصلا إلى القرية، فتركه عند إحدى العائلات الفقيرة وانصرف. عاد بعد أسبوع ليأخذه، وفي الطريق سأله: هل عرفتَ الآن كيف يعيش الفقراء؟ ردّ الابن: نعم، هُم لديهم أربعة كلاب ونحن لدينا واحد. في حديقتنا حمام سباحة وهم عندهم نهر. لدينا فوانيس كهربائية تنير باحة بيتنا وهم لديهم نجوم تنير السماء. لدينا فِناء وهم عندهم الأفق كلّه. لدينا قطعة أرض محدودة وهم لديهم حقول شاسعة. نحن نشتري طعامنا وهم يزرعونه. عندنا سور كبير وكاميرات مراقبة لتحمينا من اللصوص، وهم عندهم جيرانٌ يحمونهم.. عرفتُ الآن يا أبي كم نحن فقراء.

ياسر حارب - دبي
نوفمبر 2014

وقف مِرْسال القصر في وسط السوق واعتلى منصة الإعلان وقال: «توفي الملك». ساد هرجٌ في المكان وبدأ الناس يتساءلون في ما بينهم؛ حيث لم يكن في المملكة وليٌّ للعهد، ولا أحد يعرف كيف ستكون طريقة انتقال المُلك.

أكمل المرسال كلامه: «ولكنه وضع وصية قبل أن يموت تنص على تنصيب أي رجل من المدينة ملكًا مكانه إن قبل بالشرطين التاليين: الأول، أن تكون مدة حكمه خمس سنوات فقط، يُمنح خلالها سُلْطة مُطْلقة، وتُسخّر له جميع أموال المملكة. والثاني، أن يُنفى إلى الصحراء بعد انقضاء المدة المحددة، دون دابة أو متاع».

«ظالم حتى بعد موته»، هذا ما قاله الناس بعد أن انفضّوا.

تقع المدينة في إحدى زوايا الصحراء البعيدة عن الساحل، وبرغم أنها كانت الواحة الأجمل والأكبر بين الرمال، فإنها كانت تبعد عن أقرب بئر ماء مسيرة يومين على ظهر الجمال، لذلك كانت عقوبة الإعدام فيها هي النفي خارج أسوارها.

ظلّت المدينة دون ملك لأسابيع، وكلما حاول وزراء القصر أن يُقنعوا أحدًا بتولي المنصب يُباغتهم الفشل في اللحظات الأخيرة. وكان إسكافِيٌّ[1] فقير لا يملك شيئًا من متاع الحياة يُحدِّث نفسه بالتقدم للمنصب، فأن يعيش خمس سنوات مرفهًا وسعيدًا ثم يموت، خير من تنظيفه أحذية الناس طوال حياته.. هذا ما كان يقوله لزوجته.

اتخذ قراره أخيرًا وتقدم إلى القصر بطلب تنصيبه ملكًا. تمّت الإجراءات بسرعة، طبع ختْمه على وثيقة تلزمه بشرطي الوصية، أقيمت الاحتفالات في المدينة لعدة أيام، وانتقل من النوم على الحصير إلى النوم على الحرير. إلا أن الملك الجديد لم يكن لديه وقت لإدارة مملكته، وكان يخرج مع بداية كل أسبوع في قافلة كبيرة محملة بالمؤن والصناديق العظيمة ولا يعود إلا بعد انقضاء شهر على الأقل.. فهو الملك ويستطيع أن يفعل ما يحلو له.

استمر على هذا الحال حتى انقضت السنوات الخمس، وعندما حان وقت الرحيل، بكت زوجته لمصيره الذي ينتظره في الخارج. أَسَرَّ لها في أذنها بأن تأتي معه ولا تخاف، ووعدها

(1) الأصوب (إسكاف) أي صانع الأحذية والذي يُنظّفها، لكنني فضّلتُ استخدام اللفظ الدارج «إسكافي» ليكون أوضح للقارئ.

بأنهما سينجوان من الموت. خرجا من المدينة وسارا ساعةً أو أكثر. صعدا كثيبًا رمليًّا وكانا في غاية التعب، وعندما وصلا إلى قمّته أطبقت المفاجأة كفّها على ثغرها، إذ رأت موكبًا كبيرًا انحنى لهما عندما أطلا برأسيهما من خلف الرمال. نظرت إلى زوجها وقد ارتخت ملامح وجهه، سألته من هؤلاء؟ فأجاب: «كنتُ أخرج كل شهر بمؤونة لبناء مدينة حول المياه الشرقية. كان أهلها في غاية الفقر، وعندما حاولوا الالتحاق بمدينتنا رفض الملك السابق طلبهم. قُلتُ لهم إن نصّبوني ملكًا عليهم فإنني سأبني لهم مدينة لم تشهد الصحراء لها مثيلًا». تغلغل نسيم عليل في شعرها وأخذ يداعبه، انسلّت السعادة إلى قلبها، وعاد اللعاب ليملأ فمها مرة أخرى. ركبا معًا في الهودج الملكي وانطلقا نحو مملكتهما الجديدة: مملكة الإسكافي.

كُنتُ أقود سيارتي بسرعة وأنزلق بين السيارات الأخرى حتى أصل إلى وجهتي، وفي ذلك السباق اليومي كنتُ أتنقل بين الإذاعات دون هوادة، وأُقلّب المقاطع الموسيقية قبل انتهائها. وعندما أجلسُ لقراءة صحيفة ما فإنني أرميها بعد قراءة العناوين، أما المقالات فلم أكن أستطيع إكمالها حتى النهاية.

وكنتُ أُعرِض عن طلب مُقبّلات في المطاعم، و«أدخل» مباشرة إلى الوجبة الرئيسة، وقبل أن ألتهم لُقمة تكون الأخرى جاهزة في يدي. وكنتُ أشربُ القهوة والمشروبات الغازية بشراهة. ولم أكن أطيق الاستماع إلى قصة أحدهم حتى نهايتها. أما الكُتب، فلم يكن بي صبر على قراءة أيٍّ منها حتى صفحته الأخيرة.

وفي أحد الاجتماعات التي حضرتُها، عندما كنتُ موظفًا حكوميًّا، بدأ مُديري بالترحيب بالوفد الزائر من فرنسا. وعندما أخذ استراحة لثوانٍ قفزتُ في وسط الحديث وبدأتُ أحدثهم عن الخدمات التي تقدمها مؤسستنا؛ بعدما كدتُ أنفجر من المجاملات

و«حركات» كسر الجليد، كما يسمونها في علم الإدارة، وكنتُ أعتقدُ أن اجتماعات العمل لا بد أن تبدأ دون أي مجاملات أو مضيعة للوقت. بعد أن انتهينا طلبني مديري إلى مكتبه وقال: «عندما تبدأ اجتماعًا دون أن تُرحب بالضيف الزائر فأنتَ تقول له إن أمره لا يهمك، وكل ما تريده منه هو ماله».

وكنتُ مرةً في زيارة إلى شركة إيطالية قبل مدة، وفي خضم حديثي مع مدير الشركة حول تنسيق موعد زيارتي استعرضت له جدول القطارات المتجهة إلى مدينته لكي أصل إليه مُبكرًا وأستغل أطول وقت ممكن للاجتماعات، فقاطعني ضاحكًا: «لا تقلق يا ياسر، تعال وقتما شئت، فنحنُ إيطاليون ولسنا ألمانيين.. الحياة يمكنها أن تنتظر.. وأنا أيضًا سأكون في انتظارك». ثم ضحك وأقفل الخط.

أغلقتُ السماعة وتذكرتُ مديري السابق، وتذكرت قيادتي للسيارة، وتذكرتُ جدول مواعيدي المزدحم، وتذكرت ندمي كلما وجدتُ به وقت فراغ يتجاوز الساعة.. تذكرتُ كل ذلك وأنا أشاهد المراكب وهي تبحر بهدوء في القناة الكبيرة بمدينة البندقية. نزلتُ أمشي بين المحال الصغيرة التي تبيع الزجاج والأوراق القديمة والأقلام الخشبية، دخلتُ لأشتري منها. وعندما بدأت العجوز تلف الهدايا التي اشتريتها كانت تنظر إلي

وتبتسم وتحكي قصصًا عن تاريخ المدينة. كنتُ مستمتعًا بهدوئها وانسجامها في الحديث وكأنها طفلة صغيرة ما زالت في مقتبل العمر. خرجتُ من المحل وجلستُ في مقهى صغير محشور في زقاق ضيّق، أخرجتُ كتابًا لجبران حملته معي للرحلة، وبينما أنا أتصفحه وقعتُ على مقاله المعنون بـ«أنتَ سابقُ نفسك»، فاستوقفتني هذه الجملة:

«منذ البدء ونحن سابقو أنفسنا، وسنبقى سابقيها إلى الأبد. وليس ما حشدنا ونحشدُ في حياتنا سوى بذور نُعدّها لحقول لم تُفلَح بعد. نحن الحقول ونحن الزارعون، أنتَ سابق نفسك يا صاح، وما الأبراج التي أقمتَها في حياتك سوى أساس لذاتك الجبّارة.. وقريبًا ستصير هذه الذات أساسًا لغيرك».

لا أستطيع أن أتذكر الآن تفاصيل سيارتي، ولا أغراضي الجميلة، ولا المقالات التي قرأتها، ولا الكتبُ التي لم أستطع إنهاءها، ولا حتى إنجازاتي في الوظائف التي تنقلتُ بينها طوال السنين. بل إنني لا أذكرُ أسماء كثير من الزملاء والزميلات الذين عملتُ معهم. وكأن ذكرياتي بدأت في محل الهدايا ذاك، وكأن أول صوتٍ سمعته في حياتي هو صوت تلك العجوز وهي تقول لي مسترسلة: «إن الفنّ يحتاج إلى وقتٍ وهدوء وصمت». لا أتذكر الآن المدن الجميلة التي زرتها في حياتي، ولا الجبال

التي شاهدتُ من فوقها أجمل مناظر العالم. لا أذكر شيئًا لأنني لم أعِش شيئًا، فلقدْ كنتُ مُسرعًا حتى أصل قبل الآخرين، والآن أدركتُ أنه ليس ثمة آخرون.. لا أحد غيري في هذا السباق، فلم أسبق أحدًا ولم يسبقني أحد.

الحياة ليست منافسة أو صراعًا كما قرأنا في كتب الإدارة والقيادة، بل وقت لا نملك تحديده، لكننا نملك الاستمتاع به. يقول جبران: «أنتَ سابقُ نفسك أيها الغريب العابر بباب حديقتي، وأنا مثلك سابق نفسي، حتى ولو كنتُ جالسًا في ظلال أشجاري وأبدو ساكنًا».

كتبتُ في ذلك المقهى رسالة بعثتها إلى أحدهم: «أيها العابر المُسرع، لا تنس أن تقف على أبواب الحدائق وتُسلّمَ على أهلها. لا تنس أن الشيء الوحيد الذي يستحق عبورك السريع هذا هو الوصول إلى من تُحب قبل فوات الأوان.. أيها العابر، لكل عبورٍ عودة، إلا عبور نفسك».

جلست أمه تبكي وهي تنظر إليه ممددًا أمامها وتقول لجدتي إنها تشعر بأن ابنها لن يعيش طويلًا لأن أباه لم يكن صالحًا. أما جدتي فلم تكن تنصت لها، وانشغلت بفحص الطفل وهو مُستلقٍ أمامها كخرقة بالية. لم تكف أمه عن البكاء، ولم تكف جدتي عن التجاهل، فالطبيب الماهر يعرف أن البكاء جزء من العلاج.

حاولَتْ أن تتحدث مع الطفل، إلا أنه بقي محدقًا في سقف الغرفة ولم يرد عليها. ضغطت على بطنه فتوسعت حدقتا عينيه. أمرت الخادمة بأن تأتي ببضع تمرات. سَحَقت التمرات بعد أن أخرجت منها النوى وعجنتها حتى صارت قطعة واحدة كبيرة. كشفت عن بطنه وقرّبت العجينة من سُرّته بهدوء حتى التصقت بجلده ثم سحبتها إلى الأعلى، فطار من مكانه وكأن لُغْمًا انفجر تحته. اقتربت منه وقالت وهي تنظر في عينيه: «إذا أردت أن تعيش فلا بد أن تعتاد الألم. الألم لا يقْتُل، اليأس ما يفعل ذلك». أرخى الفتى جسده وكأنه اقتنع بما قالت، كررت فعلتها عدة مرات فيما هو يكتم ألمه. كانت أمه تنوح كلما رأت العروق

تبرز في وجهه، إلا أن جدتي حذرتها من الاقتراب منه وقت العلاج.

بعد أن انتهت من عملية إلصاق التمرات ونزعها، أخذت قليلًا من زيت الزيتون ومسحت به بطنه وصدره وهي تردد آياتٍ من القرآن الكريم. أجلسته ووضعت سبابتها في حلقه وضغطت على مؤخرة لسانه عدة مرات ثم نزعت إصبعها قبل أن يستفرغ. مسحت وجهه ورقبته بالزيت وطلبت منه أن ينام قليلًا.

قالت أمه عندما أتت به إنه قضى أيامًا لم يأكل فيها شيئًا، وكان نومه قليلًا جدًّا. عندما استيقظ طلب بعض الطعام. وضعت أمه كفها على فمها وأجهشت بالبكاء وهي تراه يأكل. هوت على رأس جدتي تقبله، فضحكت جدتي وقالت: «أنا لست إلا أداة في يد الله، يضعني في دروب المرضى لكي يشفيهم بها»، ثم وضعت بعض الأعشاب في كيس وطلبت من أمه أن تخلطها بماء مغلي وتتركها حتى تفتر ثم تسقيها لابنها كل يوم.

كان بيت جدتي عيادة مفتوحة، يقصده المرضى من كل حدب وصوب. لم تكن تعالج أجساد الناس فقط، بل أرواحهم أيضًا. كانت تقول إن الروح المتعبة تفسد الجسد، والجسد المتعب يخنق الروح. كانت الأعشاب التي تستخدمها، ويستخدمها سكان الجزيرة العربية، نمط حياة وليست أدوية فقط.

لم تكن فوائدها مكتوبة، بل كانت تتناقل شفهيًّا وبالممارسة من جيل إلى جيل، مثل تعاليم البوشيدو في اليابان. اعتدتُ الذهاب معها وأنا صغير إلى العطّار، فيناقشها في فوائد الأدوية، ويخبرها بالاكتشافات الجديدة، وتخبره هي بما توصلت إليه من خلطات أيضًا. إن ما نحفظه في صدورنا يصير أكثر قدسية.. كذلك هي الأعشاب، لم يكن أحد في حاجة إلى تدوينها، فبعض ما يدوّن يغدو أقل أهمية.

بعد عشرين عامًا، وقبل أن ترحل عن الدنيا بعدة أشهر، دخل عليها رجل وامرأته وهو يحمل طفلة صغيرة بين يديه. لم يكن من عادتها أن تسأل ضيوفها عن أسمائهم أو سبب زيارتهم، وإنما تكتفي بسؤالهم عن أحوالهم وتقديم الفواكه والقهوة لهم. شرب قهوته ثم نظر إليها وسألها: «أمي مريم، ألم تعرفيني؟» فقالت إنها قد كبرت في السن ولم تعد ذاكرتها تسعفها في تذكر الناس، فقال: «أنا ذاك الفتى الذي أنقذته من الموت قبل زمن، أنا ابن فلانة». ثم قدم إليها طفلته وقال لها: «هذه ابنتي، وإنّي سمّيتها مريم». حملتها جدتي وقد تساقطت الدموع من عينها. قبلتها على رأسها وقالت لها: «أبوك لم يكن في حاجة إلى دواء، فلقد كفاه صبره في ذلك اليوم عن كل أدوية العالم».

إلى أن تُوفيّت جدّتي لم أكن أذهب إلى الطبيب، فلقد كان

بيتها الصغير عبادتي، وصندوقها الرمادي، حيث تضع أعشابها، صيدليّتي، وابتسامتها الحانية دوائي. بيتي اليوم مليء بالأعشاب، أستخدمها كُلّما مرضتُ، أو مرض أحد أطفالي.. هكذا فقط أشعر بأنني أبرّها بعد رحيلها.

كيف تبلغ المدينة الفاضلة؟

اعتقَدَ أفلاطون، ومن بعده الفارابي، أن السعادة الحقيقية لا توجد إلا في المدينة الفاضلة، أما المدن الأخرى التي يسميها أفلاطون الفاسقة والضالة فإنها تخلو منها، وإن وجدت فإنها سعادة خادعة. أحقًّا لا يسعد الناس إلا عندما يكونون فضلاء؟ وماذا عن اللصوص إذن؟ كيف يسعدون ويضحكون وهم يسلبون الناس أشياءهم الثمينة؟ ربما لا يشعرون بالذنب لأنهم يرون أن الحياة لم تكن منصفة، فأرادوا إحقاق العدالة بأيديهم.. أليست العدالة فضيلة؟

يسعى الإنسان كثيرًا لبلوغ الفضيلة، وأحيانًا يكون ذلك دافعًا للشعور بالفوقية تجاه الآخرين، وفي لحظة ما، يواجه موقفًا فيتخلى عن كل فضائله بسهولة، وينحدر إلى درك أدنى ممن كان يبزّهم بالعمل الصالح. عندها، ندرك أن شعورنا بالفوقية الإيمانية الذي تعززه ممارستنا للفضيلة هو ضرب من العنصرية بين حسناتنا وسيئاتنا. ليست السيئات وحدها المؤقتة فقط، بل إن بعض الحسنات مؤقتة أيضًا.

كثيرون يمارسون العنف والقسوة والقتل باسم الإيمان، وقليلون يعفون عمّن أساء إليهم. النوع الأول يُحب بعضنا أن يسميه «المجاهد»، والنوع الثاني نسميه «الضعيف». بعضنا يسيء فهم الإيمان، فيمارس أبشع الجرائم باسمه، ثم يأمل أن يدخل الجنة ويداه ملطّختان بالدماء، وأقسى ما في ذلك أنها غالبًا ما تكون دماء مَن يُحب.. حينها لا يعود الإيمان عملًا صالحًا، ويتحول الإنسان إلى شبح لا يشبه أحدًا حتى نفسه. لا أستطيع أن أجد فضيلة في إيمان كهذا حتى لو تسربل به من يظنون أنهم فضلاء.

في المدينة الفاضلة، عليك أن تتحلى بقدر عالٍ من الشجاعة كي تستطيع أن تسامح، وقَدْرٍ كبير من الغباء كي تستطيع أن تنسى. لا أجد فضيلة في الغباء إلا في حالات المرض، فعندما ينسى الإنسان مرضه فإنه يستطيع أن يخرج منه، لأنه في تلك اللحظة فقط يستطيع أن ينتصر على كل شيء في داخله. الإيمان بالنفس هو إحدى أسمى الفضائل الإنسانية، وهو الطريق الذي يقودنا إلى الإيمان بالله.

عندما نقحم الفضيلة في ممارساتنا عنوة، فإننا نجرّدها من ثقلها الحقيقي، لتكون ذات خفّة وشفافية لا تتناسبان مع طبيعتنا الإنسانية، تمامًا مثل القهوة التي يُخففها أحدنا بإضافة مزيد من الماء فتصبح غير مستساغة، وعندما تسأله عن السبب يقول لك:

حتى أنزع منها الكافيين! وأتساءل هنا: لماذا لم يشرب الماء وحده إذًا؟ إن مهمة القهوة تكمن في منحنا النشاط، ولكي نحصل على النشاط فلا بد من تجرّع بعض المرارة. أشعر أحيانًا بأن الفضيلة تحمل مرارة أكثر من اللازم.

الفضيلة، أحيانًا، مثل الماء، منها بدأ الأحياء، ولكن يمكنها أن تقتلهم إذا ما اتسعت وفاضت عن حاجتهم. وعلى الرغم من أن جسم الإنسان مليء بالماء، فإنه يحتاج إلى وقت حتى يتعلم السباحة، فامتلاكنا الأشياء لا يعني قدرتنا على السيطرة عليها، كذلك هي الفضيلة، تشغل مساحة كبيرة من تفكيرنا، لكنها تغرقنا عندما نقفز في لُجّتها فجأة.

إن الفضيلة الوحيدة التي لا نستطيع أن نتملّص منها هي التناقضات التي تعيش بداخلنا، لأنها وحدها ما يؤكد لنا أننا بشر ولسنا ملائكة، ولو نزل مَلَكٌ مِن السماء لامتلأ بالتناقضات مثلنا. أحيانًا «نرتكب» الأفعال الحسنة لظننا أنها ستؤدي إلى حياة حسنة، لكن الغريب أن بعض آثامنا يؤدي إلى حياة حسنة أيضًا. أليس هذا أحد التناقضات التي لا ننكرها ولكننا نخشى الإقرار بها؟

ممارسة الفضائل لن تخلق مدينة فاضلة، ولكن استمرار المحاولة هو شكلٌ من أشكال بلوغ الهدف. ليس مهمًّا أن نُمارس الفضيلة، بل الأهم أن نُؤمن بضرورة وجودها في حياتنا، فالإيمان بالأشياء قد لا يحققها، لكنه يمنحها قُدْسية.

لا قيمة لإيماننا إن لم يقدنا إلى فعل الفضائل، فالإيمان وسيلة وليس غاية، كما أن الفضيلة وسيلة أيضًا، والوسائل الصادقة هي التي تقود إلى وسائل أخرى، لأنها تدفعنا إلى مزيد من العمل.

الفضيلة لا تكمن في الزهد بالأشياء، فقد يبدو أن زهد أحدنا بالمال فضيلة، إلا أن حصوله على ذلك المال ثم مساعدته فقيرًا محتاجًا قد يكون فضيلة أسمى.

لا تخجل من تَمَنّي الأشياء الفاضلة، فأحيانًا تكون الأمنيات أصدق من الحقائق. أن تتمنى الخير فذلك عمل فاضل، ولكن أن تتمنى الأشياء طوال حياتك ثم تموت دون أن تحاول الحصول عليها فذلك عمل أحمق ولا شك. لم أستطع أن أجد في الحماقة أي فضيلة، وخصوصًا في الحروب، كحماقة إطلاقك سراح الفارس الذي سيعود ليقتلك يومًا ما.. لا تلم ذلك الفارس لأنه يبحث عن المجد ولا يأبه لفضيلة رد الجميل. إن السعي لتحقيق البطولة، أحيانًا، عمل أرعن يحب الناس تسميته «شجاعة»، فبعض الأبطال مثل القطار الذي يجري بسرعة على سكة الحديد لكي يصل قبل الآخرين، ولأنه لا يستطيع أن يحيد عن مساره فإنه مضطر، كما نعتقد، إلى صدم كل من يقف في طريقه. أتساءل الآن: أي فضيلة في البطولة؟

المدينة الفاضلة ليست موجودة، ولا يجب أن توجد،

فوجودها سيلغي الرغبة في الدعوة إلى الخير، ولن يعود للعدل حاجة، وسيصبح الإيمان فعلًا مبتذلًا. إنها فكرة سعى الإنسان عبر التاريخ لتحقيقها ولكنه أخفق، وما أجمل الأفكار عندما لا تتحقق، فهي وحدها التي تستطيع أن تسافر عبر العصور، وأحيانًا يكون لها وقعٌ أكبر تأثيرًا من تحقيقها.

إذا أردت أن تنام كثيرًا في الليل، فعليك أن تعمل أكثر في النهار. وإذا استطعت أن تنام دون أن تفكر في أحد، ثم استيقظت ولم تتذكر أحدًا، فاعلم أنك قد بلغت المدينة الفاضلة.

عَلَم البحر

في أحد الموانئ الصغيرة، يرتاح مركب كبير على جانبه الأيمن. تبدو أطرافه مهترئة، لكن جسمه ما يزال قويًّا رغم امتلائه بالشقوق التي تشبه تجاعيد البحارة. الْتَصَقَ بالقاع الضحل تحته، إلا أنه يميل قليلًا إلى الناحية الأخرى كلّما علا مد البحر، ثم يعود إلى اتكاءته عندما تنحسر مياهه. المركب مثل الإنسان، يحتاج إلى الحركة، وإن كانت رمزية، لكي يستمر في الحياة.

يحيط بالهيكل الخارجي صفٌّ من المسامير المعدنية الكبيرة التي تستخدم في تثبيت الألواح الخشبية. كادت المسامير أن تختفي بعد أن كساها الصدأ، إلا أنها ظلت محتفظة بصلابتها، متجاهلة الشمس والرطوبة والسنين. الحديد أيضًا يشبه الإنسان، تكمن صلابته في داخله بغض النظر عن هشاشة شكله.

يبدو المركب لمن يراه للوهلة الأولى وكأنه قد أصيب بالشلل، وعلى الرغم من أنه كان يشغل حيزًا في الميناء يتسع لعشرة مراكب صغيرة، فإن أحدًا لم يفكّر في زحزحته من مكانه. لقد أصبح جزءًا

من المكان، ومِن ذاكرة البحارة القدماء الجالسين على الكراسي الخشبية، يتذكرون الماضي ويروون حكاياته.

كل ما في المركب يبدو مألوفًا؛ شكله القديم، رائحته العتيقة، وانعدام الفائدة منه. أحيانًا، تعتاد الأشياء فقدانها للمنفعة، فتفضّل أن تختبئ في زوايا الوقت حتى ينساها الناس، وحتى تنسى أنفسها. كل شيء في ذلك المركب يوحي بالماضي، إلا شراعه، ما زال معلّقًا على الصارية يراقص النسائم الخفيفة كأنه ينتظر غدًا جديدًا. يبدو الشراع وكأنه قد تمّ تركيبه قبل بضعة أيام فقط، وعندما سألتُ عنه قيل لي إنه لم يفارق المركب منذ أن تمّ تركيبه قبل خمسين عامًا.. خمسون عامًا وما زال أبيض؟ هكذا تساءلتُ، فقال لي أحد البحّارة:

ـ عندما يبني أحدنا مركبًا فإنه يحرص على اختيار الأخشاب الصلبة والأدوات المتينة التي تستطيع أن تمخر عباب البِحار وتركب الأمواج دون أن تتحطم، إلا أنه يحرص أكثر عندما ينتقي شراعه، فالشراع لا يدفع المركب إلى الأمام فقط، بل يختار الوجهة الصحيحة أيضًا.

ـ لكنني ظننتُ أن قبطان السفينة هو الذي يختار الوجهة باستخدام البوصلة والنجوم؟

ـ أهذا ما تظنه حقًّا؟ وماذا سيحصل لقائد السفينة إذا فقد شراعه؟ هل ستنفعه البوصلة والنجوم حينئذٍ؟! الشراع يعرف

ـبحر أكثر مما يعرفه البحارة، ويعرف البحارة أكثر مما يعرفون ـفسهم. عندما يُطوى الشراع فإنه يطوي معه كل أحلامهم، وعندما يُفرد ويمتلئ بالرياح، تمتلئ قلوبهم بالأمل، فيستأنفون ـعمل. الشراع عالم لا يسكنه إلا المستكشفون، يَعْبُرون من خلاله إلى عجائب الدنيا.

هل تعرف ما عجائب الدنيا؟ هي الأشياء التي تدفعك ـتضحية من أجل أن تصل إليها. الأعجوبة هي حلم راود ـخصًا ما قديمًا، وما زال يراود أشخاصًا آخرين حتى اليوم. إنه ـحلم الذي يدفعنا لتكرار المحاولة، إلا أنه لا يتحقق.. ربما حتى نظل في سعي دائم لتحقيقه. لذلك كان انتقاء الشراع ـمناسب أهم من انتقاء المركب المناسب.

- ولكن كيف يعرف الشراع طريقه في البحر؟

- الشراع الأصيل فقط هو الذي يعرف ذلك، لأنه حُمِلَ في ـبحر، وولد على شاطئ البحر.

- لم أفهم!

- إن الخيوط التي تُصنع منها الأشرعة خيوط صلبة ونادرة، ـ توجد إلا في بلاد بعيدة، وعندما يؤتى بها إلى بلادنا، تكون ـد قطعت أشد البحار قسوة وأشرسها أمواجًا، ثم إذا وصلت ـيـ، يقوم الصُنّاع بخياطة الشراع على شاطئ البحر حتى يتشرّب

روحه ويعتاد بأسه. وبعد أن يكتمل يكون جاهزًا لمخر عبابه لأنه يفهم لغته.. الأشرعة لا تتحدث إلا لغة البحر.

ـ وما لغة البحر؟

ـ البحر لا يتحدث لغة الأمس، لأن ذاكرته قصيرة، ولا يحتفظ من الأمس إلا بما يفيده لليوم، وكذلك هي الأشرعة، تنظر إلى الأمام دائمًا، تبحث عن الجديد، ولا تخشى العواصف، لأنها تعلم أن كل ما يأتي بعد العاصفة يكون جميلًا.

ـ وكيف بقي هذا الشراع أبيض؟

نظر إلى البحر طويلًا. انتشى الهواء برائحة المِلْح. قال ببطء:

ـ هناك أسطورة تقول إن الشراع يحتفظ بروح قبطانه، وإذا كان القبطان رجلًا صادقًا ووفيًا لبحارته فإن الشراع يبقى أبيض تخليدًا لذكراه.

ـ ولماذا لم تُنزلوا الشراع وتحتفظوا به في بيت قبطانه؟

ـ الشراع هو آخر ما يُركّب مِن أجزاء المركب، ولا يُنزع عنه حتى يغرق.. هذا هو عرف البحارة. أعرِفُ أن قبطاننا يرانا من خلاله الآن، يستمع إلى أحاديثنا المسائية ويضحك على تُرّهاتنا. هذا الشراع هو آخر ما تبقى مِن أحلامنا، منه غزلناها وبه وصلنا إليها.

الفائضون عن اللزوم

شاهدتُ مقطعًا قصيرًا عن مليونير الفنادق البريطاني بيتر سميدلي الذي أقدم على إنهاء حياته أمام الكاميرا في فيلم وثائقي بثته قناة «بي بي سي». كان بيتر يعاني مرضَ العُصاب الحركي، وهو مرض نادر يصيب المُسنّين أكثر من غيرهم، ويسبب آلامًا مبرحة في المفاصل وفي مختلف أجزاء الجسم.

تجرّع بيتر كمية من دواء قاتل أدى بعد ثوانٍ إلى مفارقته الحياة. لكن العجيب في تلك اللحظات القصيرة أنه شكر من كان حوله، ثم أمسك بيد زوجته وقال لها بهدوء: «كوني قوية يا عزيزتي» وأغمض عينيه، في مشهد قاسٍ جدًّا، لكنه غريب إلى أبعد الحدود. فعلى رغم مخالفته كل الأعراف الإنسانية والأديان السماوية، فإن بيتر بدا سعيدًا بقرب رحيله، وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة منذ زمن.

لا أعرف شخصًا لا يعاني آلامًا نفسية أو جسدية، ولكن يختلف الناس في طريقة تعاملهم مع الألم، وفي طريقة تعريفهم

له. فهناك من يتصالح مع ألمه ويعتبره جزءًا من حياته، ولا يهمه زاد أو نقص ما دام قادرًا على التبسّم كل يوم.

أعرف شخصًا مدينًا بأكثر من ثلاثين مليون درهم وليست لديه وظيفة، وكلما جلستُ معه وجدته أكثر تفاؤلًا مني، وأكثر قدرة على الإبداع في الحياة. وهناك من يشتكي آلامه ما دام هناك من ينصت إليه، حتى يتمكن منه الألم كحيوان مفترس غرز مخالبه في ظهر فريسته.

شيئان فقط يستطيعان أن يلامسا روحك: الحب والإيمان. فالحب يجعل النفس جريئة، مقبلة على التضحية من أجل السعادة لا من أجل الشقاء كما يفعل البعض. والإيمان يجعل النفس قوية، قادرة على التقدم نحو ما تريد دون خوف أو تردد. بهما مجتمعين يستطيع الإنسان أن يتغلب على اليأس. الحب يشبه حزام الأمان في السيارة، يمنحنا الثقة على دروب الحياة. وعندما نضطر أحيانًا إلى سلك طرق مظلمة أو وعرة، فإنه يشعرنا بأن هناك من يضمنا إلى صدره؛ ليحيل الظلام نورًا، والخوف حبورًا. أما الإيمان فإنه كالوسائد الهوائية في السيارة، وإذا ما خرج أحدنا عن مساره وتدهورت به الأيام أو انقلبت به الظروف، فإن الإيمان وحده ما يمكنه أن يخفف من تلك الصدمات، ويمنحنا الطمأنينة برغم الألم. إنه من يجعل الناجي يقول: «الحمد لله أنني لم أمت في ذلك الحادث»، ليس لأنه ما زال حيًّا فقط، ولكن لأن رجله الوحيدة

المتبقية ستصبح مع مرور الوقت قادرة على حمله لتسلّق الجبال.

تساءلتُ بعد أن شاهدتُ ذلك الفيديو: لماذا ينهي الإنسان حياته؟ وبعد ليلة كاملة من التفكير توصلتُ إلى أن بيتر كان عاجزًا عن استحضار السعادة التي يحملها المستقبل في طياته، وعجز أيضًا عن استرجاع الذكريات الجميلة المختبئة في التفاصيل الصغيرة؛ فتلك مضادات للألم، ومسكنات نحتاج إليها كثيرًا لمقاومة اليأس. ما أغرب من كانت لديه الشجاعة لينهي حياته ولم تكن لديه الشجاعة لمواجهة آلامه!

يفقد المرء مروءته عندما يتحدى كل الصعاب حوله ويجبن عن مجابهة الصعاب التي تَلِجُّ في داخله. إن لكل عاصفة نهاية، ولكل موجة انكسارًا، ووحده من يؤمن بذلك يتعلم السباحة حتى لا يخشى الغرق. وإنه لَمِن سذاجة الإنسان أن يتعلم السباحة وقت العواصف، ومن جُبنه ألا يفعل ذلك. ولأن أكون شجاعًا ساذجًا، خير من أن أكون جبانًا واقعيًا.

أتساءل أحيانًا كيف يجد الإنسان السعادة في عالم مليء بالآلام؟ لا يمكننا أن نزرع العالم بالأزهار، لكن يمكننا أن نزرع زهرة واحدة لنراها كل يوم ونحن نخرج من البيت. ولا يمكننا أن نبني العالم من حولنا مثلما نريد، لكن يمكننا أن نبنيه في داخلنا كيفما نشاء.

العالم الداخلي ليس انعكاسًا للخارجي إلا لدى المتشائمين الذين يعيشون على هامش الوجود. قرأتُ مرة أن الأطباء استخرجوا دواءين لعلاج القلب، ودواءً لمحاربة السرطان، وآخر لعلاج أمراض الدماغ، كل ذلك من داخل أفعى، فتساءلتُ كيف يمكننا أن نجد الدواء في داخل الأفاعي ولا يمكننا أن نجده في داخل البشر؟!

إن أكثر الآلام قسوة هي أن نفقد الإيمان بغدٍ أفضل. يقول زرادشت: «الفائضون عن اللزوم يجعلون من موتهم أمرًا مهمًّا، والجوزة الفارغة هي أيضًا تود أن تُكْسَر».. إن من يتعلّق بالحياة لن يُحسِنَ الموت، ومن يتحدث عن الموت لن يُحسن الحياة.

الشيلة

تتحسس بيدها خزنتها القابعة في طرف الغرفة. تفتحها ببطء فتحدث صوتًا يشبه صوت المحركات القديمة. تمسح بأصابعها على حواف[1] الصندوق المصنوع من الألمنيوم المُهترئ. كان الناس في الجزيرة العربية يستخدمونه قديمًا ليحتفظوا فيه بثيابهم وأشيائهم الثمينة، وبرغم اندثار تلك العادة، فإن العجائز ما زلن يحتفظن بتلك الصناديق في غرفهن حتى لا ينسين الماضي.

تتلمّس بأصابعها الثياب المتراكمة بانتظام بعضها فوق بعض، وبينما هي كذلك، تصطدم يدها بزجاجة عطر عربي قديم، تخرجها من الصندوق وتضعها بجانبها. تغوص يداها في الصندوق مرة أخرى كمن يريد أن يستخرج كنزًا بهدوء حتى لا يُفسده، وبعد بحث قصير عثرت عليها، قرَّبتها من وجهها واستنشقتها ثم تحسست جوانبها المُطرّزة لتتأكد أنها الشيلة[2] الصحيحة.

---

(1) الأصوب (حافات) ولكن جرى العرف على استخدام (حواف).

(2) الشيلة: غطاء أبيض من القطن الخفيف، يوضع على الرأس، تستخدمه =

فتحت زجاجة العطر، وضعت بضع قطرات منها على الشيلة كمن يمسح على ظهر قطّة صغيرة، ثم أعادت الزجاجة وأنزلت غطاء الصندوق وكأنها تضع طفلًا في مهده.

وقفت للصلاة وفردت شيلتها، فانفرش الربيع وفاح في المكان. لفّتها على رأسها بإحكام وانتظرت قليلًا حتى تحفّها الملائكة. إنها تشعر بهم، وتعلم أنهم يحبون رائحة ذلك العطر. بعد أن امتلأت الغرفة بالعطر والبركة، بدأت بالصلاة، فانْتَشَرت دعواتها في المكان تُلملمها الملائكة وتصعد بها إلى السماء. كانت رائحة الشيلة ترسُمُ الشفق، ودعوات العجوز تلوّنه لكي يبدأ الصباح.

أخذت النسمات المنبعثة من حفيف أجنحة الملائكة تداعب أطراف الشيلة وتحركها مثلما تعبث النسمات العليلة بالأشرعة نصف المطوية في السفن، تلك المتقاعدة في الميناء. بعد أن انتهت من صلاتها، طوت سجادتها ووضعتها فوق الصندوق، وبدأت بتلمّس طريقها إلى خارج الغرفة. كان الجميع نائمًا، حتى أشعة الشمس.

خرجت من البيت لتطمئن على نخلتيها اللتين زرعتهما عندما

= النساء في الجزيرة العربية وقت الصلاة، وتستخدمه المسنات لتغطية رؤوسهن على الدوام.

سكنت هنا قبل ثلاثين عامًا. لم تكن ترى بعينيها، بل بيديها، وكلما مرّت بمجموعة أزهار في حديقتها الصغيرة، توقّفت قليلًا لتتأكد من أنها اكتفت من المياه البارحة. كانت رائحة الشيلة تحمل إلى الورود رحيقًا من عبق التاريخ، فتسكبه في قلبها حتى تطيل أعمارها. أما النخلتان فكانتا تستيقظان على عبقها لتنبتا الرُّطَبَ والدفء.

الشيلة سقفُ الحكايا، وظِلُّ الحب والأمان. تُحدّثنا عن الذين مرّوا من هنا وتركوا أثرًا، تروي لنا قصص الجِمال والواحات، بطولات البحارة وأساطيرهم، ثم تُغلّفنا بالطمأنينة حتى ننام.

بعد أن اطمأنت إلى أن نخلتيها ما زالتا قادرتين على حمل الثمار، استدارت عائدة إلى البيت متّكئة على الأزهار التي تبادلت سنْدها واحدة تلو الأخرى حتى أوصلتها إلى باب المنزل بسلام. كانت الأزهار تمسح على أصابعها حتى تعطّرها، وكانت الشيلة تمسح على رؤوسها حتى تلوّنها. تعلم العجوز جيدًا أن شيلتها تمنح الأشياء دفئًا وسلامًا، لذلك كانت ترتديها كل صباح حتى تبثّ الحب في الأرض، وترتديها كل مساء حتى يعمّ السلام في السماء.

التفّ أبناؤها حول مائدة الإفطار، وما إن رأوها حتى هرعوا إلى تقبيل رأسها ويدها. الكل يريد أن ينهل مِن دعواتها ومِن عبق

شيلتها. تُقبلهم، تمسح على ثيابهم، تُبقي شيئًا منهم في كفْها، تجمع ضحكاتهم في أذنها، تملأ ذاكرتها بأصواتهم، وضحكاتهم، ومخارج حروفهم.

عندما حلّ المساء، ارتدت شيلتها مرة أخرى واجتمع حولها أحفادها الصغار. حكت لهم كثيرًا وهم يداعبون أطراف الشيلة البيضاء.. تُذكّرها بقلوبهم النقية.

أنهت سرد القصص، قبّلت الصّغار على وجناتهم، ركضوا إلى غرفهم مسرورين، يغمرهم صوتها، يؤنّبهم فراقها، يفتحون حصّالاتهم العاطفية ليملؤوها بحنانها.

بعد أن تأكدت أنها منحت الحب لكل من كان حولها، دخلت غرفتها مسرورة بإتمام مهمّتها، خلعت شيلتها، علّقتها على الجدار، اطمأنت، رحلت دون عودة.

الحياة ليست من صُنعنا، لكن الحب كذلك.

طواحين الخوف والتردد

في رائعته العالمية «دون كيخوته» يتحدث الروائي الإسباني سرفانتس عن بطله الذي يتأثر كثيرًا بقراءة قصص الفروسية، فيقرر الخروج بملابس مهترئة وأسلحة صدئة، راكبًا حصانًا نحيفًا لكي يصنع مجدًا خاصًّا به حتى تروى قصص فروسيته من بعده، على رغم أنه لم يكن يومًا فارسًا. وبعد مسيرة أيام يرى ثلاثين طاحونة هواء فيقول لحامل سلاحه سانشو: «أمامنا ثلاثون من المردة العتاة بأذرع طوال سوف أنازلهم وأسلبهم الحياة جميعًا»، فيرد مساعده مستغربًا بأنه لا يوجد هناك أي مردة، وما تلك إلا طواحين هواء بأجنحة تديرها الرياح وليست أذرعًا! لكنّ دون كيخوته يوبخ مساعده ويتهمه بالجبن، ثم يندفع لمنازلة الطواحين وحيدًا، وما إن يصطدم بالطاحونة الأولى حتى يتكسّر رمحه ويطير عن فرسه ويسقط على الأرض.

إن في كل واحد منا دون كيخوته صغيرًا، يُنصِّب لنفسه مَرَدة من خياله، ويغزل من خيوط الوهم عقباتٍ لا أساس لها من الصحة، وكلما حاول أن ينجح في حياته يتعذّر بعدم قدرته على

تخطي أولئك المردة الذين قد يكونون على هيئة فقر، أو يأس، أو بطالة، أو أي معضلة من معضلات الحياة، فيقضي عمره بين الخوف منها والتردد في مواجهتها.

بين الخوف والتردد يعيش الظلام، ويعشش اليأس الذي يطحن كل فرصة للنجاح، فمخاوفنا طواحين من صنع أنفسنا وأفكارنا المليئة بالسلبية. قرأتُ مرة إحصائية تقول إن الإنسان يسمع كلمة «لا» خلال الثماني عشرة سنة الأولى من حياته أكثر من 148 ألف مرة، بينما لا يسمع كلمة «نعم» إلا بضع آلاف من المرات. إذ تتضافر جهود الأسرة والمدرسة والمجتمع على تعزيز المخاوف في نفسه من خلال تحذيره من إتيان أي عمل جديد أو جريء، فتتبرمج نفسه على الإحجام عن القيام بأي شيء خارج مسار حياته الروتينية، وعندما يواجه تحديات الحياة، فإنه يضخّمها ويصنع منها طواحين عملاقة. إلا أن الفرق هنا أنه لا يواجهها كما فعل دون كيخوته، بل يستسلم لها ويعيش حبيس قضبانها الوهمية.

إن اليأس سرطان الحياة، والخوف وقود التردد، وعندما يحاول الإنسان معرفة كل التفاصيل الدقيقة قبل القيام بعمل جديد فإنه يكرّس التردد، وعندما يُعلي من قيمة تلك التفاصيل فإنه يمارس الخوف، ولذلك فإن المتردد لا يثق بعقله، والخائف لا يثق بقلبه، ولو كانت مخاوفنا حقيقية فلماذا لا يعانيها غيرنا بالدرجة نفسها التي نعانيها نحن؟

التردد هو أمنيات لم نثق بها بعد، نعلم أنها جميلة، لكننا نخشى أن نتعثر في الطريق إليها، وهذه الخشية ذاتها سبب توقفنا، وننسى أن عثراتنا قد تصنعنا أكثر من نجاحاتنا. ولذلك، يولي المتردد زمام نفسه إلى غيره ليسوسها، فيفقد السيطرة على مصيره، ولا يعود له من الحياة سوى انتظار عطف الآخرين وحسناتهم. أما الخائف فإنه يلغي الحاجة إلى المستقبل لأنه يخشى دروبه. قد تبدو دروب المستقبل مظلمة، لكن الظلام وحده ما يمنح النور جمالًا ويدفعنا للبحث عنه، أو لاختراعه بأيدينا. إن عدم ثقتنا بالمستقبل لن يلغي وجوده، بل يلغي وجودنا نحن.

عندما أرى مجتمعاتنا العربية يسودها الخوف والتردد أتساءل: هل نقرأ الكتب الصحيحة التي تزرع في نفوسنا الطمأنينة وتعزز الشجاعة في داخلنا؟ هل ما نشاهده من أخبار ومسلسلات يدفعنا إلى الضحك والتفكير والتساؤل؟ إن أغلبية مدخلاتنا الثقافية، التي تشكل حيزًا كبيرًا من بناء شخصياتنا، هي مدخلات سلبية، تقتل فينا كل إيمان بالنجاح، وتنشر رذيلة الخوف بين أفراد المجتمع. ليس عيبًا أن يخاف الإنسان، ولكن العيب أن تسيطر عليه مخاوفه، فالشجاعة ليست غياب الخوف، وإنما المقدرة على التحكم به.

إن تكرار اللاءات في حياتنا جعل من السلبية حالة طبيعية،

ومذ كنا صغارًا ونحن نسمع تحذيرات مثل: «لا تفعل هذا، هذا عيب، هذا غير لائق، ماذا سيقول عنك الناس؟!» لتنعكس تلك العقد على ممارساتنا الحياتية، ويصبح الناس قضاة علينا في محكمة المجتمع المجحفة. فعندما تذهب لشراء ملابس جديدة فإنك تفكر في رأي الناس، وعندما تضحك في مكان عام فإنك تفكّر في صورتك أمام الناس، وعندما تعزم على الزواج، فإنك تكون حذرًا جدًّا في اختيار شريك حياتك لكي يتوافق مع توقعات الناس، وفي خضم كل هذه الإرباكات الاجتماعية ينسى الإنسان أن يمارس حريته دون أن يتدخل الناس في تفاصيل حياته!

الخوف يشبه عيش امرأة مع رجل لا تحبه، والتردد يشبه عيش رجل مع امرأة لا يثق بها. الأولى تموت كمدًا، والثاني يموت قلقًا. إن من يريد أن يتخلص من الخوف عليه أن يفهم نفسه، ولكي يتخلص من التردد عليه أن يفهم الحياة. فهم النفس يأتي بالاستماع إليها وبتدريبها، وفهم الحياة يأتي بخوض تجاربها وتحمّل آلامها.

كَسْر حاجز الخوف يُرينا ما يوجد خلفه، ومواجهة مخاوفنا تُعجل في انتصارنا عليها لأنها حتمًا ستواجهنا، والأشياء التي تخيفنا هي الأشياء التي يجب أن نبدأ بها أولًا، وأخيرًا نحتاج ألا نيأس من تكرار المحاولة، فكما قال سرفانتس: «الوقت يُنضِجُ كل شيء».

ينطلق بعد صلاة الفجر بـ«الشاشة»، وهي قارب صغير كان يُستخدم قديمًا لصيد الأسماك على ساحل الخليج العربي، حيث كان من أكثر القوارب شيوعًا في المنطقة. تُستخدم المجاديف في تسييره، وأحيانًا شراع صغير، ولا يحمل أكثر من ثلاثة أشخاص. يصل إلى مكان الصيد ويُلقي شباكه بعد أن يدعو الله أن يوفقه، ولا يكاد ينتهي من دعائه حتى تصل ستة قوارب أخرى وتقف على مرمى بصره وسمعه ويفعلون مثله. ينظر بعضهم إلى بعض ويلقون التحايا، يتمنى كل منهم للآخر أن يُرزق بصيد وفير.

يقترب وقت الغداء فيُقرّبون قواربهم الصغيرة بعضها إلى بعض، يُخرج كل واحد غداءه ليقتسمه مع الآخرين، وبعد أن يسألوا الله أن يبارك في الطعام، يقضون أقل من نصف ساعة في الأكل والحديث والضحك. قبل الغروب بقليل، يسحب كل منهم شباكه، يُخرج ما علق بها من أسماك، يطويها ويضعها في قاربه استعدادًا للعودة. ولكن، قبل أن يتّجه كل منهم ناحية

قريته، يقترب بعضهم إلى بعض للمرة الأخيرة ليتأكدوا أنه لا يوجد قارب يخلو من أسماك، وإن وجدوا أن أحدها كذلك، يقوم كل منهم برمي بعض الأسماك التي اصطادها في قارب زميلهم الفارغ دون أن يقولوا شيئًا، فلقد صار ذلك عرفًا صامتًا بينهم، ثم يرحلون.

في كل ليلة، كان كابوسٌ يُباغت زايد، وهو أحد أولئك الرجال، فيستيقظ مبكرًا ويصل قبل الآخرين إلى مكان الصيد. ظل الكابوس يقضّ مضجعه لسنوات، حيث يرى أمواج البحر ترتفع وتشتد قوة الرياح، فتبدأ قوارب أصدقائه بالانقلاب والغرق واحدًا تلو الآخر، يحاول إنقاذهم لكنه يعجز، ثم يسمع صوتًا يأتيه من بعيد قائلًا: «الحزن مع الجماعة فرحة». يستيقظ من نومه وقد اكتسى جسده بالعرق، يقرأ بعض الآيات من القرآن، ثم يُصلي ركعتين قبل الفجر ويدعو الله ألا يحدث ذلك.

وفي يوم من الأيام، وقبل انصراف الصيادين من موقع الصيد، اقترب منه أحدهم وقال له إن قاربه ثُقِبَ ولن يحمله حتى اليابسة، وطلب منه أن يركب معه ويربطا القارب بحبل خلفهما. رحّب زايد بالفكرة، وعندما ركب زميله إلى جانبه، أمسك أحد المجدافين وأمسك زايد بالمجداف الثاني، وأخذ الاثنان يجدّفان حتى وصلا إلى الميناء.

ـ يبدو أننا وصلنا بسرعة.

يضحك الرجل وهو يقول ذلك، فيرد زايد متعجبًا:

ـ فعلًا، لقد قطعنا المسافة في نصف الوقت فقط.

عاد زايد إلى بيته وهو يفكر في ما جرى، لقد استطاع أن يصل بسرعة وبتعب أقل عندما عاونه صديقه، ولو أنه ساعده في الصيد فلربما استغرق وقتًا أقل في سحب الشباك وفك الأسماك منها.. بل إنه سيستطيع أن يصل إلى مسافة أبعد في داخل البحر حيث توجد أسماك أكثر.. هذا ما دار في رأسه.

غفت عينه بعد أن أنهكه التفكير، رأى الحلم نفسه، ولكن هذه المرة كانت القوارب قد اصطفت بعضها إلى جانب بعض وقد أمسك كل صياد بقارب صديقه جيدًا مشكلين حلقة صلبة. ارتفع الموج فارتفعت كل القوارب معًا دون أن تنقلب.. لأول مرة لم تنقلب. بعد أن هدأت العاصفة، سمع الصوت نفسه يقول: «حان وقت الفرحة».

استيقظ وانطلق مُسرعًا إلى البحر. وصل إلى رفاقه فقال لهم:

ـ هل تؤمنون بالأحلام؟

ردوا عليه بأن بعض الأحلام يمكن تفسيرها، وقد تكون حقيقة. روى لهم ما رأى في المنام ثم قال:

ـ يمكننا أن نجني صيدًا أكثر إذا استطعنا أن نصل إلى مسافة

أبعد في البحر، لكننا لن نتمكن من فعل ذلك بقواربنا الصغيرة. ما رأيكم أن نبني قاربًا أكبر ونعمل فيه؟ أعني «شوعي»[1] يكون قادرًا على أخذنا إلى أماكن تجمع الأسماك الكبيرة، ويمكننا كذلك أن نحمل فيه كمية أكبر من الصيد.

ظل الصيادون محدقين فيه، ثم نظر بعضهم إلى بعض، وقال له أحدهم:

- وكيف يمكننا أن نشتري الشوعي؛ مالنا لا يكفي؟

رد زايد:

- لو بعنا قواربنا السبعة فيمكننا أن ندفع جزءًا من قيمة الشوعي، وسوف نسدد الباقي لاحقًا.. لا تنسوا أننا سنصيد أسماكًا أكثر.

بعد أشهر كان الصياديون يُبحرون كل صباح على ظهر الشوعي، ولاتسّاع حجم السفينة، كانوا يأخذون أبناءهم معهم ليساعدوهم في العمل. الكبار يهتمون بالصيد، بعض الصغار يساعدونهم في ذلك، والبعض الآخر يعملون في داخل المركب، يُنظفون ويطبخون، واتفقوا على تعيين زايد قائدًا لهم.

بعد أكثر من أربعين عامًا تحول مركبهم إلى أسطول عملاق

(1) الشوعي: سفينة شراعية كان يستخدمها صيادو ساحل الخليج العربي.

يجوب بحار العالم، تُستخدم فيه أكثر السفن حداثة، ولا يكاد يوجد ميناء في العالم ليست فيه سفينة تابعة لهم.

قبل أن يموت زايد قال لأبنائه:

ـ «عندما أبحرنا بسفينتنا الكبيرة لأول مرة، لم يكن ذلك عن خبرة وإنما عن إيمان.. إيمان بضرورة الوحدة، ورغبة في تحقيق مصلحة أبنائنا التي لا تُدْرك إلا بالاتحاد».. بعد أن مات زايد، كُتب على قبره: «إن أجمل الأحلام تلك التي تُباغتنا في النوم واليقظة». هذا الأسطول يُسمى اليوم «الإمارات».

هوامش

على هوامش الحياة ارتكبنا حماقات كثيرة؛ أذنبنا، اقترفنا أخطاء وموبقات، ثم رحنا نتوب في وسط الصفحات، على السطور البارزة، حتى يظن الناس أننا أنقياء طيبون.

علمتنا الهوامش أن أجمل لحظات حياتنا هي التي لا نهتم بتدوينها وننسى أن نوثقها في دفاتر التاريخ. لذلك نعود بعد زمن طويل ونتذكر ثم نكتب على أطراف الصفحات، وبخط صغير، جُملًا قصيرة تبدأ بكلمة «ملاحظة». ما أجمل أن يذيّل أحدنا رسائله بالملاحظات.

كنت أفعل ذلك دائمًا، وخصوصًا في الرسائل الرسمية التي كنت أرسلها بالبريد الإلكتروني. اكتشفت الآن أنني كنت أكتب بعدها تعليقات فكاهية، وإشارات عاطفية دون أن أشعر. كل الرسائل كاذبة إلا ما نكتبه في نهاياتها؛ وما الملاحظات إلا هوامش ذات عناوين.

نظن أن أحدًا لن يقرأ هوامشنا، ولا ندري أن أعين القراء

تسقط عليها أولًا. هم أيضًا لديهم هوامش مثلنا، ولذلك تجدهم يبحثون عن هفواتنا ليشعروا بأنهم أفضل منا، أو حتى لا يشعروا بأنهم وحدهم من يحب الخروج عن القواعد والأحكام. كلنا نكذب عندما ننتقص غيرنا ونقول: «إنه يعيش على الهامش»، لأننا نتمنى في داخلنا أن نكون مثله؛ مهمشين لا يعرف أسماءنا غير بعض الأصدقاء، نفعل ما نريد ثم لا يُلقي لنا العالم بالًا لأنه مشغول بمن يعيشون في وسط الصفحات، وبمن يصنعون التاريخ كل يوم.

في الهوامش يا أصدقائي لا نستطيع أن نكذب، لأننا نبلغ حين نكتب فيها أعلى درجات اللا مبالاة، ونرمي بكل القيود التي كُبلت بها عقولنا في سلال المهملات. هناك في الطرف المتطرف من الصفحات يستطيع أحدنا أن يقول، بتجرّد، إنه فعل كذا وكذا.

الجميل في لغة الهوامش أنها مكتوبة بصيغة الماضي، فلا أحد يجرؤ على أن يكتب عن حقيقته الآن إلا في وسط الصفحات حيث تتسع مساحة الكذب، والحُب العذري، والإيمان الخالص، وكل الأقنعة التي نرتديها عندما نخرج للناس صباحًا، ثم نزيلها كمساحيق التجميل في المساء، فتعود وجوهنا على حقيقتها: باردة ومعتمة كتماثيل الرخام القديمة!

لا شيء مريحًا كالصعلكة، فعندما يتسكع أحدنا في أزقة

المدن القديمة، ويحك أكتافه بأكتاف المعدمين والمنسيين، يشرب قهوتهم ويضحك على طرائفهم ثم لا يتعاطف معهم؛ يكون حينها صعلوكًا مثلهم. عندها فقط يتمنى ألا يملك في جيبه إلا قوت يومه، وألا يحمل في صدره شيئًا حتى هَمّ يومه.

مشكلتنا أننا ننسى في لحظة غرور أننا لا نعيش حقًّا إلا على هوامش الحياة. ففي الهوامش فقط نستطيع التفكير بحرية، والتعبير بحرية. في الهوامش، نُخلص ونحن نستغفر، ننكسر ونحن نبكي، نبتسم عندما نفرح وليس عندما نجامل. في الهوامش يا أصدقائي نكون أصدقاء حقًّا، وهناك فقط نصير مخيرين لا مسيرين.

يأتي المساء فيسيل الحبر على الهوامش يملؤها شغفًا وشغبًا. كل الكلمات يمكن أن تُمحى إلا ما نكتبه في الهوامش، لأن من يكتب في الهامش كمن ينحت في صخر؛ وقته محدود ومكانه ضيق ولا شيء غير الحقيقة المطلقة تتسع لذلك المكان.

خطوطنا في الهوامش مائلة دومًا، متعرجة، يبهت لونها بسرعة لكثرة ما يمسح الناس عليها بأصابعهم حتى يشعروا بوقائعها، أو ليشعروا بمدى زيف أنفسهم. العالم مشغول بتحقيق الإنجازات وتدوينها، بالصراع على تصدّر الصحف ونشرات الأخبار، بالفوز والكسب. وحدهم البسطاء المهمّشون الذين يتفرّجون من مقاعد الدرجة الثانية مَن يُدرك حقًّا أن السعادة

تجلس بينهم على هوامش الصفحات، تسخر من المحاربين الصناديد الذين يُقاتلون ويقتلون أنفسهم لا من أجل قضية، ولكن من أجل أن تُكتب أسماؤهم على أغلفة الكتب القديمة، أو لتُعلَّق صورهم على جدران المتاحف العريقة.

الهوامش، اليوم، هي الأماكن الجميلة التي نمر بها دون أن نراها، هي القهوة التي نشربها دون أن نتذوقها، هي القلوب التي نحطمها ثم نتذكرها في آخر العُمر. الهوامش هي السكينة التي نقضي حياتنا بحثًا عنها وهي بين جوانحنا. الهوامش هي البدايات البسيطة، والنهايات الهادئة التي نمرّ عليها مرور الكرام.

العصفور والخفاش

حكى لي جدّي هذه القصة على لسان أحد متصوّفة الإسلام:

يُحكى أن عصفورًا كان يطير في الصباح بحثًا عن طعام، ولشدة جوعه كان مضطربًا ومنهكًا، إذ إنه لم يأكل منذ يومين. بعد أن حلق فوق المكان باحثًا عن أي حشرة يسدّ بها رمقه، رأى كهفًا صغيرًا غائصًا في الجبل. فكّر قليلًا: «ربما يكون الكهف هو المكان الوحيد الذي فيه شيء يؤكل». بدا مدخله مُرعبًا، لكنه ميّتٌ في كل الأحوال إن ظل يطير خاوي البطن.. فضّل الموت باحثًا على أن يموت جوعًا فوق أحد الأغصان.. هذا ما دار في نفسه.

دخل الكهف فاكتحلت عينه بالسواد. غاص في ظُلْمته حتى ذابت خيوط الشمس. وبينما هو يطير اصطدم بشيء طري فسقط. لم يدْرِ أين هبط به القَدَر، لكنه كان سعيدًا بأن المكان الذي سقط عليه كان طريًا أيضًا. نظر حوله فرأى نقاطًا حمرًا تتوهجّ وتقترب منه وهي تبثّ رائحة كريهة. كانت مجموعة من

الخفافيش أفزعها دخول هذا الغريب. قال أحدهم بنبرة دلّت على أنه كبيرهم:

ـ كيف وصلت إلى هنا ومن أين أتيت؟

ـ أتيت من الغابة، ووصلت طائرًا.

ـ وكيف تطير في ظلام النهار؟

سكت العصفور قليلًا وهو يحاول أن يتبيّن ملامح الخفّاش.. تذكّر السؤال فقال:

ـ ظلام النهار!

ـ نعم، كيف يمكن لأحد أن يرى في هذا الظلام الذي تحدثه الشمس بأشعتها؟ قال الخفّاش.

ـ الشمس مصدر النور وليست مصدر الظلام، أنتم في ظلام دمسٍ هنا. نحن معشر العصافير لا نطير إلا في النهار، أما في الليل فلا نرى شيئًا.

ـ ما هذا الهُراء؟! يبدو أنك أحد أولئك السحرة الذين يرون في الظلام. اعترف الآن، هل أنت مشعوذ؟ لا تكذب، وإلا أمرت الخفافيش بتمزيق عينيك.

ـ كلا لستُ مشعوذًا، أنا عصفور، أقسم لك إنني لا أرى في الظلام.

أشار إلى الخفافيش فانهالوا ضربًا على رأس العصفور

وجسده حتى كادوا يقتلونه. أشار إليهم بالتوقف، رفع أحد جناحيه وانهال به على إحدى عيني العصفور فجرحها ورماه أرضًا، ثم قال:

ـ هل ما زلت مصرًّا على أنك ترى في النهار؟

تذكّر العصفور المثل القائل: «خاطِب الآخرين على قدْر عقولهم»، وتذكر أيضًا أن الخفافيش لا ترى في النهار، فقال لزعيمهم:

ـ لا تؤاخذني يا سيدي، لقد كذبتُ عليك، أنا حقًّا لا أرى في النهار، لكنني كنت أحاول التدرب على الطيران ودخلت إلى هنا لأنني ضللت الطريق ورأيت نور كهفكم من بعيد، وها أنذا الآن أرى كل شيء حولي.

ضحك الخفاش، ثم صمت فجأة وقال بنبرة صارمة:

ـ أنت مجنون إذن ولست مشعوذًا. مَن منا في حاجة إلى الطيران في النهار! انتَظِر الليل حتى يُشْرِق وطرْ كيفما شئت، فالإبصار في الظلام ضَرْبٌ من جنون.

ثم أذِنَ له بالرحيل..

ختم جدي قصّته:

«كل إنسان يرى الحياة بمنظوره الخاص، وعدم قدرتنا على استيعاب آراء الآخرين لا يعني أننا على صواب، كما لا يعني

أنهم على خطأ. الحياة مليئة بالألوان، لكن الإنسان وحده من لا يرى أحيانًا إلا الأبيض أو الأسود. خاطب الناس على قدْر عقولهم، ولا تحكم عليهم على قدْر عقلك».

من أين يأتي الإلهام؟

شاهدتُ محاضرة قصيرة قدمتها الروائية إليزابيث غلبرت في فعالية «تِد TED» حيث تحدثت عن نجاح روايتها «طعام.. صلاة.. حُب»، وكيف أن الناس تسألها هل هي خائفة من أنها لن تستطيع أن تكتب شيئًا أفضل في المستقبل أم لا! سؤال منطقي، إذ إن بعض النجاحات الخارقة تبدو غالبًا الأخيرة، ولذلك فإنها تخيف أصحابها كثيرًا. ولكي تجيب إليزابيث عن تلك التساؤلات بحثت في التاريخ عن مصادر الإلهام، ووجدت أن الأفكار الإنسانية التي برزت في مرحلة النهضة الأوروبية قد ركزت على فكرة أن الإنسان هو مركز الكون والأشياء كلها. وأظنها تقصد مساهمة «الإنسانيين» الذين برزوا في القرن الخامس عشر في أوروبا وكانوا ينادون بإعطاء الإنسان قيمته الحقيقية القائمة على حقه في التفكير والإبداع، إذ جردته كنيسة عصور الظلام من كينونته وجعلته تابعًا لها. ثم مساهمة «الوجوديين» الذين أسس مذهبهم في النصف الأول من القرن العشرين الأديب الفرنسي جان بول سارتر الذي فاز بجائزة نوبل للآداب إلا أنه رفض تسلمها.

من أين يأتي الإلهام؟

شاهدتُ محاضرة قصيرة قدمتها الروائية إليزابيث غلبرت في فعالية «تِد TED» حيث تحدثت عن نجاح روايتها «طعام.. صلاة.. حُب»، وكيف أن الناس تسألها هل هي خائفة من أنها لن تستطيع أن تكتب شيئًا أفضل في المستقبل أم لا! سؤال منطقي، إذ إن بعض النجاحات الخارقة تبدو غالبًا الأخيرة، ولذلك فإنها تخيف أصحابها كثيرًا. ولكي تجيب إليزابيث عن تلك التساؤلات بحثت في التاريخ عن مصادر الإلهام، ووجدت أن الأفكار الإنسانية التي برزت في مرحلة النهضة الأوروبية قد ركزت على فكرة أن الإنسان هو مركز الكون والأشياء كلها. وأظنها تقصد مساهمة «الإنسانيين» الذين برزوا في القرن الخامس عشر في أوروبا وكانوا ينادون بإعطاء الإنسان قيمته الحقيقية القائمة على حقه في التفكير والإبداع، إذ جردته كنيسة عصور الظلام من كينونته وجعلته تابعًا لها. ثم مساهمة «الوجوديين» الذين أسس مذهبهم في النصف الأول من القرن العشرين الأديب الفرنسي جان بول سارتر الذي فاز بجائزة نوبل للآداب إلا أنه رفض تسلمها.

وكان وجه الشبه بين الإنسانيين والوجوديين أنهم جعلوا من الإنسان غاية مُطْلقة، وافترضوا أنه مخزن الطاقات والإلهام والحكمة. إلا أن إليزابيث تعتقد أن في ذلك ظلمًا للإنسان، وخصوصًا عندما يفقد القدرة فجأة على الإبداع، فيظن أن هناك خللًا به هو. وتتساءل: ما ذنبها في أنها وصلت إلى قمة إبداعها وهي ما زالت في الأربعين من عمرها؟! وإذا كانت حقًّا قد فقدت القدرة على إنتاج أعمال أفضل في المستقبل، فماذا ستفعل في العقود الثلاثة القادمة في حياتها؟

إلا أنها وجدت فكرة غريبة في فلسفات الإغريق واليونان قديمًا، إذ كانوا يعتقدون أن الإلهام أو الحكمة يُمنحان للإنسان ولا يصدران منه، أي إنهما يأتيان من الخارج ولا ينبعان من الداخل. ففي حالات كثيرة يشعر المرء بأنه قادر في لحظة ما على القيام بعمل إبداعي، كالكتابة أو الرسم، دون أن يعرف سببًا لذلك.

وأظنني أتفق معها كثيرًا، فلقد قرأتُ عن بعض الكُتاب أنهم يسمعون صوتًا يملي عليهم ما يكتبون، وقال البعض إن الإلهام كالمطر يهطل عليهم فجأة. وقال أحدهم إن الحكمة تقبع في السماء؛ ولذلك فإنه يقضي ساعات طوالًا يحدّق عاليًا في انتظارها لكي تنزل.

وزرتُ قبل عدة سنوات مع مجموعة من الأصدقاء الكاتبة

الإنجليزية دوريس ليسينغ، الحائزة جائزة نوبل للآداب، في بيتها الصغير بلندن. عندما جلسنا سألها أحدنا كيف تأتيها فكرة الكتاب، فقالت: «أحيانًا يأتي الكتاب من خلال جملة عابرة، وأحيانًا يأخذ عشر سنوات حتى يصل. لدي كتاب اسمه «الزيجات بين المناطق الثالثة والرابعة والخامسة»، ظللت أفكر فيه عشر سنوات. أما كتاب «الإرهاب الطيب» فقد أتتني فكرته خلال محادثة هاتفية».

وأتساءل الآن: هل نمط حياتنا يمنحنا الفرصة لنستشعر الحكمة؟ أنا على يقين بأن إليزابيث ودوريس وغيرهما من المبدعين قد أدركوا أن انغماسهم في نمط حياتنا السريعة والمربكة اليوم هو ألد أعداء الحكمة، ولو أنهم توقفوا عند كل خبر ظهر في الأخبار وتفاعلوا مع كل أحداث العالم، كما يفعل كثير منا، فإنهم سيفقدون الصلة بينهم وبين الحكمة.

إن الإلهام لا يهبط إلا على من يستحقه، ولا يستحقه إلا من هيّأ نفسه بالصبر، والتركيز، والابتعاد عن محاولة التحول إلى قناة إخبارية تعرف كل ما يدور في العالم. سألت أحد الذين أتابعهم على تويتر لماذا بات مُقلًّا في كتاباته التي كُنتُ أستمتع بها كثيرًا، فقال إن قلبه لم يعد قادرًا على الإبداع في عالم مليء بالإحباط والسلبية! فلكثرة ما نتابع الأخبار والمصائب في شتى بقاع العالم أصبنا بشلل عاطفي وضياع ذهني، ولم تعد نفوسنا

مهيّأة للتفكر في الإنسان والكون والوجود والمعرفة والجمال والحب وكل الأشياء التي كانت تلهمنا.

تساءلت عن مصدر الإلهام وأنا أكتب روايتي الأولى، فاكتشفتُ بعد أن انتهيت أنه يملأ المكان وتنتشي به الأجواء، لكننا نوصد الأبواب دونه لننكبَّ على أخبار القتل والاستفتاءات والفيضانات.

اسأل نفسك الآن: متى كانت آخر مرة شاهدت فيها قناة «ناشيونال جيوغرافيك» مثلًا، ليوم كامل؟ ومتى شعرت بأن متابعة برنامج عن الفضاء أو التكنولوجيا أهم من متابعة نشرات الأخبار؟

وإذا كنت تظن أن نشرات الأخبار ستفيدك أكثر من البرامج الوثائقية فحاول أن تتذكر متى ضحكت، أو ابتسمت، أو حتى شعرت بالارتياح بعد انقضاء نشرة أخبار؟ انظر إلى شعراتك البيض الآن وستدرك أنها تباغتك كل يوم بازدياد حتى وأنت لم تتخط عتبة الثلاثين من عمرك لسبب واحد فقط: أنك لست مستعدًا للإلهام، أو ربما، لست في حاجة إليه.

كنز البدوي

يُحكى أن بدويًّا كان يعمل في إحدى المدن الواقعة على ساحل الخليج العربي؛ حيث كان مستوى المعيشة متدنيًا في القرى الداخلية في القرن التاسع عشر. كان يزور قريته مع رفاقه مرة كل بضعة أشهر. كان الطريق طويلًا، وفي إحدى رحلات العودة باغتتهم مجموعة من قُطّاع الطرق. أراد رفاقه التصدي لهم، فحذّرهم: «إن هؤلاء القُطّاع مدربون على القتال».

«وهل تريدنا أن نتركهم يأخذون مالنا الذي تعبنا من أجله؟!». ردّ أحد رفاقه، فقال البدوي: «أن يأخذوا أموالنا خير من أن يأخذوا أرواحنا». صرخ في وجهه: «جبان».

كان عويّ الريح يجعل الأصوات أكثر تشنّجًا، واجتمعت الحرارة مع الخوف ليزيدا غزارة العَرَق على الوجوه. تكلّم البدوي بحزْم:

«دعونا نُعطِ قطاع الطرق أموالنا، وأعدكم بأن أعوضكم عنه عندما نصل القرية».

«وهل لديك ما يكفي لتعويضنا؟ نعلم أن حالك مثل حالنا، فكيف يمكنك فعل ذلك؟!» سأله رفاقه، فردّ مُنهيًا الحوار: «لدي كنز في القرية لم أخبر به أحدًا.. دعوني أتولّ هذه المهمة».

نزل عن ناقته وتوجه ناحية اللصوص حتى اقترب منهم. وجدهم ملثمين وقد شهروا أسلحتهم. توقف على مسمعٍ منهم وقال للرجل الذي كان جالسًا على حصانه في المقدمة وبدا أنه رئيسهم:

«نعلم أنكم تريدون أموالنا، ولكننا في طريقنا إلى أهلنا، وإن أخذتم رحالنا فسوف نقاتلكم حتى الموت، وسنقتل منكم وستقتلون منا، ولكن لدي اقتراح يحقن الدماء ويعطي كلًّا منا ما يريد».

ردّ عليه الزعيم:

«وما ذاك؟».

«سنبتعد عن القافلة وندعكم تأخذون منها الأموال فقط، على أن تتركوا رحالنا وكلأنا لكي نتمكن من الوصول إلى ديارنا».

قال للبدوي:

«لك ذلك».

وصل البدوي ورفاقه إلى القرية ليلًا. طلب منهم أن يزوروه

في اليوم الثاني ليفطروا عنده ويعطيهم الكنز. في الصباح، اجتمع الرجال مع أبنائهم في خيمته، وعند دخولهم رأوا زوجته وابنته الصغيرة تُعدّان الطعام وهما تبتسمان إحداهما للأخرى، وكان ابنه يُعدّ القهوة للضيوف وهو يترنّم بأبيات شعر سعيدة.

بعد أن انتهوا من الطعام، امتلأ المكان برائحة البُنّ. تطايرت أبيات الشعر من أفواه الأولاد، ثم الرجال، حتى انتهو بغناء جماعي تخلله الضحك والبهجة.

عندما حان وقت الانصراف أشار البدوي إلى الأطفال وقال لرفاقه: «هذا كنزكم..».

لماذا نكتب؟

اهتم الإنسان منذ بداية التاريخ بتدوين ما يريد أن يقول، فبدأ السومريون بالكتابة المسمارية التي كانت عبارة عن خطوط مرسومة في الطين أو في العظم أو في المعادن. ثم جاءت مرحلة الكتابة التصويرية وكانت على هيئة أشكال وحيوانات، ومنذ ذلك الحين، لم يكُفّ الإنسان عن تدوين بَوْحه حتى لا يُطوى ذِكْرُه مِن سجلّات التاريخ.

كلما مررتُ بين الكتب تساءلتُ: لماذا يكتب الإنسان؟ لماذا لم يكتفِ بالاحتفاظ بكلامه لنفسه؟ هل هو مُجبَرٌ على البوح أم أنّه يفعل ذلك باختياره؟ يعتقد البعض أن الكتابة أحد أنواع الجنون، ولكن كيف يكتب المجنون للعقلاء؟ الكتابة أحد المكوّنات الوجودية التي تشكل حياة الإنسان، فكلما كتب أحدنا أعاد رسم نفسه، وأحيانًا، يُعيد رسم الآخرين ليصبح بعد مدة جزءًا من حياتهم. قيل قديمًا: «اختر الكاتب كما تختار الصديق»، فالكاتب الذي تثق به ترمي له بزمام عقلك، تأتمنه على عواطفك، حتى لا ترى ولا تسمع إلا به، فبعض الكُتّاب

يمنحنا كلامه إيمانًا بالحياة، وبعضهم يمنحنا إيمانًا بأنفسنا.

إن من يكتب يترك وراءه قبسًا يهتدي به السائرون في طريق الحقيقة، فقد لا تستطيع أن تُدلّ الناس على الصواب، لكنك تستطيع أن تحكي لهم عنه. نكتب لنكتشف العالم، ونسبر أغوار الوجود. نكتب لنُعبّر عَن أنفسنا، أو ربّما، لنعْبُرَ إليها. ليس بالضرورة أن تكون صحافيًا أو روائيًّا أو مفكرًا لكي تكتب، ويكفيك أن تشعر حتى تبدأ بالكتابة، فالكتابة حالة شعورية تُصيب الإنسان دون أن يدري لماذا، ولكي يعرف الإجابة عليه أن يكتب ثم يبحث بين السطور. لا يهم أن تحرك مشاعر الآخرين لتكون كاتبًا ناجحًا، الأهم أن تحرك الأفكار الراكدة في عقولهم، فأرقى عمل يمكن لكاتب أن يحققه هو تعليم الناس كيف يفكّرون.

الكتابة عملٌ فنّي، وبعض ما يكتب يستحق أن يُعلَّق في المتاحف ليستمتع الناس به، فالكاتب يرسم بكلماته، وينحت بقلمه، ويلوّن الصفحات بعباراته. لا يهم نوع الألوان التي تستخدمها، ولكن عليها أن تكون صالحة للتلوين وليست للدعاية والإعلان. بعض الكتّاب يلوّن الأرض، وبعضهم يلوّن السماء، وبعضهم يلوّن الأمنيات التي تصعد بينهما. إن من يكتب عن الذكريات يفنى مع موته، ومن يكتب عن الأمنيات يعلّمنا بعد موته أكثر مما يعلّمنا في حياته.

لا يملّ الكاتب الاهتمام بنصّه والعناية بشكله مثلما يعتني

بمضمونه، لأنه يتعامل مع النص ككائن حي، يُراعي أوقاته وظروفه، لا يجبره على ما لا يُطيق، وكلما كبر النص معه، صارا أكثر نضجًا وأكثر قدرة على مواجهة الحياة. إن الكاتب الحقيقي هو الذي يطرح الأسئلة التي يخاف الناس طرحها، وهو الذي يستكشف الجوانب التي يصر المجتمع على حجبها، إنه مثل المغامر الذي يذهب إلى آخر العالم حتى يعود بحكاية يرويها لمن بعده.

أجمل أنواع الكتابة هي التي تعيد تعريف الأشياء لتعيد تقديمها إلى البشرية بصيغة جديدة، أو بالأحرى، بصيغتها الحقيقية، فمعظم الحقائق تختبئ خلف التعريفات وتندس بين معاني الكلمات، والكاتب الفذ وحده من يستطيع أن يضع التعريفات في نصابها الصحيح، وإن تكسّرت في سبيل ذلك أقلامه، لأنه يخاف على مجتمعه أكثر مما يخاف منه. الكتابة هي السعي للوصول إلى الحقيقة، ومن لم يصل إلى الحقيقة فعليه ألا يخترعها أو يوجدها، لأن الحقيقة أزلية الوجود، لا يمكن إعادة إصدارها أو مصادرتها.

يسعى الكاتب ليضع حياته في كتاب، ويسعى القارئ ليجد حياته في كتاب، ومن قرر أن يحفظ أسراره في كتاب فهو في الحقيقة يؤجل كشفها بعض الوقت فقط، لأن الأوراق أكثر شفافية من القلوب.

بعض النصوص التي نقرؤها تؤثر فينا لمدة طويلة، تملأ

صدورنا بالأمل، تدفعنا إلى العمل، والنصوص التي لا تفعل ذلك نصوص ناقصة، تنتقص منّا كلما استمررنا في قراءتها.

إن مهمة الكاتب تكمن في النظر في ما يجب أن يكون وليس في ما كان وما هو كائن فقط، لأن الكاتب مسؤول عن شقّ الطرقات وليس عن ريّها، ولذلك عليه ألا يضيع وقته في السعي لإصلاح عادات المجتمع، فالعادات، كما يقول ابن خلدون، كالظواهر الطبيعية، يَخضع لها الناس دون أن يستطيعوا إخضاعها لهم. ولذلك فإن الكاتب الحصيف هو الذي يسعى لترميم الأفكار ومحاورتها، فالفكرة الصحيحة قادرة على صناعة مجتمع جديد، بعادات جديدة تشبه المستقبل وتنتمي إليه.

لستَ في حاجة إلى معرفة قواعد الكتابة لكي تكتب، اكتب الآن وتعلم مع الوقت. المهم أن تعتاد تدفق الحروف من بين يديك لا مِن خلفك. لا تخَف مما تكتب، فمن يخف مِن حروفه لا يستحق أن يحمل قلمًا. عندما يبدأ أحدنا بالكتابة فإن نَصّه يكون جزءًا منه، وبعد أن ينتهي يصبح هو جزءًا من ذلك النص. من يكتب يتبرّع بشيء مِن روحه للبشرية، ولذلك فإنه لا يموت، فكلّما جاء أحد بعده وقرأ شيئًا من أعماله أعاد إحياءه من جديد. الكتابة فعلٌ مُقدَس لأنه بدأ في السماء، ولذلك علينا ألا نُدنّسها في الأرض. سألني أحدهم قائلًا: لماذا نَكتب؟ فقلتُ له: «نكتب حتى نترك أثرًا، وحتى لا نكون أثرًا».

يعرفه الناس بآثار الماء التي يتركها خلفه، إذ توجَد في القِرَب المُعلقة على جانبي ظهر الحمار فتحات صغيرة من كثرة الاستعمال، تتسرب منها المياه كلما مرّ على أرض وعرة. يبدأ عمله مع أول خيوط الفجر؛ ينطلق إلى البئر الموجودة خارج القرية، يملأ قِرَبه بالماء ثم يمرّ على المنازل ليبيعه على أهلها.

قصير القامة، جاحظ العينين، توزعت على رأسه شعيرات بطيئات النمو في أماكن متفرقة، أما وجهه فيحمل جرحًا غائرًا نتج عن سقوطه في البئر عندما كان والده يحفرها وهو صغير.

لم يكن أحد من أهل القرية يحتمل رؤية وجهه الدميم، وكلما مرّ بأحد البيوت ليملأ خزانها بالمياه، دخل وسكب الماء بسرعة وخرج. صار يكره أن يرى نظرات الاشمئزاز في أعين الناس، ومنذ أن أصيب بذلك الجرح في وجهه لم يرَ نفسه في المرآة.

لم يتخلف عن عمله يومًا واحدًا، حتى عندما يمرض كان

يملأ القرب بالماء ويرسل الحمار وحده إلى القرية بعد أن حفظ دروبها جيدًا. يمسك من يرغب في شراء الماء بزمام الحمار ويُفرغ القِرْبة في خزانه، ثم يرمي مبلغًا زهيدًا في جيب معلق في رقبة الحمار.

يعرفه أهل القرية باسم «السقّاي»؛ أي الذي يسقي الماء. وحده إمام المسجد العجوز كان يعطف عليه ويدعوه أحيانًا لتناول العشاء. يحب السقاي الإمام الذي يعتبره صديقه الوحيد في القرية، لكنه لم يشتكِ له يومًا، ولم يكن في حاجة إلى فعل ذلك، فالإمام كان يشعر بما يمرّ به السقاي من معاناة يومية، وكان يحضّ أهل القرية على الإحسان إليه، فلا ذنب له في بشاعته. كان يقول لهم: «لولاه لكابدتم عناء إحضار الماء إلى بيوتكم كل يوم، ومن يحمل إليكم الحياة فلا تمنحوه الموت بنظراتكم». إلا أن أحدًا لم ينصت إليه، فلقد كانوا يعتقدون أن السقاي يحمل الماء لحاجته إلى المال فقط، ولذلك فإنهم ليسوا في حاجة إلى احترامه أو العطف عليه.

وفي يومٍ من الأيام هبّت على القرية عاصفة رملية استمرت أيامًا، لم يستطع خلالها أحد الخروج من منزله، حتى إن الناس لم ترَ الشمس من شدة الأتربة. كانت كارثة رملية وكأن الصحراء استفرغت ما في جوفها على القرية.

بعد أن هدأ غضب الرمال، خرج الناس من بيوتهم يبحثون

عن السقاي، فلقد نضبت خزاناتهم وامتلأت بالرمال. إلا أن السقاي أو حماره لم يكونا موجودين. توزع الرجال بحثًا عنه لكنهم لم يجدوا له أثرًا. خرجت مجموعة منهم إلى المكان الذي كان يسكن فيه بالقرب من البئر، فكانت خيبتهم كبيرة عندما لم يجدوا أي أثر للماء.. لقد طمرته العاصفة!

اجتمع الأهالي في ساحة القرية، وبعد تباحث قصير قرروا أن يرسلوا ثلاثة من الرجال على جمالهم للبحث عنه في الصحراء، فهو الوحيد الذي يعرف مكان المياه في المنطقة، ومن دونه فإن أهل القرية سيكونون في خطر حقيقي. كان الخزان الوحيد الذي تبقى به ماء نظيف هو خزان المسجد، وبعد أن تمّ حصر عدد البيوت في القرية، تمّ تقسيم كميات المياه على المنازل بما يتناسب مع عدد سكانها، فاكتشفوا أن الماء الموجود يكفي ثلاثة أيام على أفضل تقدير.

كان السقاي يمشي وحيدًا بين الكثبان الرملية بعد أن مات حماره في العاصفة، يستذكر التعليقات اللاذعة والتهكمات التي كان أطفال القرية يصفونه بها بعد أن ينهي ملء خزانات المنازل. لم ينسَ الشتائم التي كان الأهالي يكيلونها إليه من خلف جدران منازلهم وهو يتهيأ للرحيل عند الباب.

«فليموتوا من العطش، هذا انتقام السماء»، كان يردد في نفسه وهو يمشي. لكن صوت والده كان ينساب في أذنه كلما أتته تلك

الأفكار. «إن من يحمل الخير إلى الناس عليه أن يتحمّل الألم الذي سيأتيه منهم، الألم والغفران يملآن أرواحنا بالحياة».

كان يسأل أباه في الليالي المليئة بالنجوم عن قصده، فقال له مرة:

ـ إن فعل الخير يشبه بناء أعمدة عالية لتحفظ السماء من السقوط، ولولا الخيّرون لسقطت السماء على الأرض. هؤلاء هم الذين ينزل المطر بسببهم، وهم الذين تشرق الشمس بابتسامتهم، إنهم مثل الأشجار، تملأ الدنيا بالهواء، ولا ترفض أن يحرقها الناس إذا ما احتاجوا إليها.

ـ ولكن ماذا تجني الأشجار عندما تُحرَق؟

ـ إنها تعلم جيدًا أن أجمل لحظات الحياة ليست التي تروي فيها ظمأها، ولكن عندما يستظلّ أحدهم تحتها. هذه مهمتها، وهي تفهم ذلك جيدًا. عندما تمنح أحدًا الحياة فإن قلبك يصير أكثر رحابة من هذا العالم.. تكون أكبر منه، أوسع من أفقه، عندها، يصير العالم جزءًا منك.

كان صوت والده يتردد في أذنه وهو يحفر دون توقف. صار جبينه أشبه بغيمة تهطل مطرًا على الرمال أسفل منه. علّمه والده كيف يعرف مكان المياه تحت الأرض من شكل المكان. استمر يحفر دون توقف ودون أن يشك في وجود الماء.

بعد مسيرة يوم كامل رأى الرجال من بعيد بركة ماء صغيرة، هرعوا بجمالهم تجاهها، وعندما اقتربوا وجدوا المياه تتدفق. نظروا فوجدوا السقّاي قد تمدد على ظهره بجانب البركة، وكأن مجرافه مستلقيًا بالقرب منه. نزل إمام المسجد عن جمله وعيناه تدمعان، قبّله على جبينه، حمله إلى القرية وغسّله مع الأهالي ثم دفنوه. أحضروا صخرة ووضعوها على قبره وكتبوا عليها: «عندما تَمنح الحياة للناس فإنك تصير حياة. هُنا يرقد من تغلّب على الموت».

سألني أحدهم على تويتر عن تعريف السعادة فقلتُ «لا أعرف». وكل ما أعرفه هو أنني أجدها كل يوم في شيء جديد، وأظن أنني سأحتاج إلى سنوات حتى أصل إلى تعريف مناسب لها، فالسعادة ليست قيمة مطلقة، بل أحد أكثر متغيرات الحياة تقلبًا وتشكلًا، تبعًا للناس والزمان والظروف.

كنت قبل عدة سنوات مع صديق في برلين، وكانت الحرارة تقترب من درجة التجمد، إلا أن صديقي أصرّ أن نحتسي القهوة على الطاولة الوحيدة التي تُرِكَت خارج المقهى. ولشدة البرد لم أكن قادرًا على الإمساك بالكوب جيدًا، حتى إن المارة كانوا يستغربون منا بينما كان الآخرون يجلسون داخل المقهى الدافئ. رجوته أن نعود إلى الداخل فقال: «سنسافر بعد يومين ونرجع إلى حرّ الصحراء مرة أخرى، فلا تستعجل». ثم أطلق بصره تجاه الشارع وكان البخار يخرج من فمه وأنفه كلما تنفّس. فكرت في كلامه قليلًا فأدركتُ أنني كنت أهربُ من السعادة الطبيعية إلى سعادة مصطنعة. كنتُ أشتكي من الحر في بلادي، وعندما جئتُ

إلى هذا المكان، الذي من المفترض أن يشعرني بالسعادة، وجدتُني، لا إراديًا، أهرع إلى ما أشتكي منه مرة أخرى.

لماذا يربط أحدنا السعادة بزمنٍ معين؟ فبعضنا يقول: «سأمارس الرياضة عندما أحصل على ترقية في العمل، ويجب عليّ في هذه المرحلة أن أركّز في عملي أكثر». كلا، لن تستطيع أن تركز وأنت تستنزف طاقتك على مدار الساعة. انظر في المرآة الآن وأعد اكتشاف شكلك مرة ثانية، هل أدركت كيف صار؟ هل انتبهتَ يومًا أن أطفالك ما عادوا يشاهدون البرامج نفسها التي كنتَ تشاهدها معهم عندما كانوا صغارًا؟ هل اكتشفتَ الآن أن مقاس أحذيتهم قد تغيّر مرة أو مرتين دون أن تشعر؟

يخلط الناس كثيرًا بين المتعة والسعادة، وهذا الخلط هو أحد أسباب تعاسة الإنسان وفقدانه البهجة من حياته. فالمتعة مادية وخارجية، مرتبطة بالأشياء من حولنا، كالسيارة والأموال، فإن صُدمت سيارتك رحلت فرحتك، وإن خسرت الأسهم عمّ الظلام في داخلك. وما إن يحصل أحدنا على متعة مادية ما حتى يبدأ التفكير في متعة أخرى، فيفقد لذة الاستمتاع بما بين يديه.

أما السعادة فإنها مرتبة أعلى، إنها النور الذي ينتشر في أوصالك كلما رأيتَ وجه من تحب. السعادة أن تفقد الشعور بأوزان المادة، وبوزنك أنت أيضًا، فتصبح الخفّة مسيطرة عليك تمامًا. هي أن تشعر بأنك لستَ في حاجة إلى أي شيء حتى

نفسك، أن تكون روحك كالسماء، صافية وشفافة وتسمح لكل شيء بالمرور خلالها، لكنها في الوقت نفسه تُظِلّ كل شيء وتمنحه التفاؤل. ما أجمل أن يكون المرء مثل السماء، ينظر إليه الناس كلما فقدوا الأمل؛ إنها حالة التسامح القصوى حيث يكون الحاضر هو الزمان والمكان الوحيدين اللذين تشعر بهما. عندما يصل أحدنا إلى تلك الحالة فإنه يسامح كل شيء مرّ في حياته لأنه كان جزءًا من تكوينه وخبرته، عقباته ومشكلاته، أمراضه وخساراته، تجمّعت كلها الآن وأصبحت تذكارًا. التسامح مع النفس هو أن ترى آلامك كشوكة صغيرة علقت برجلك بُرهة ثم نزعتها وأكملت المسير.

إن السعادة كالريح، تحتاج إلى أن تفتح لها النوافذ حتى تدخل حياتك، وتحتاج إلى أن تُمارس شيئًا يبهجك حتى تُعطي نصيبك الفرصة لكي يجدك. كيف يمكن لفنان تشكيلي أن يجد السعادة وهو يُفني يومه بين جدران المكاتب الإسمنتية؟ وكيف يمكن لعاشق القانون أن يبتهج وهو يعمل في الإدارة المالية؟

إن مِثْلَ هؤلاء يفعلون أشياء كثيرة حتى يحصلوا على سعادة مؤقتة، يحضرون جلسات تأمل ويمارسون اليوغا ويستشيرون أطباء نفسيين ويتعاطون أدوية مهدئة، وقد تجدهم يقودون أغلى السيارات ويُسافرون إلى أجمل البلدان، إلا أنهم في داخلهم تُعساء، والسبب أنهم وضعوا ما حولهم في داخلهم، ولم يضعوا

ما في داخلهم حولهم. لا تحتاج إلى أن تكون غنيًّا لتفعل ما تُحب، بل تحتاج أن تفعل ما تحب لِتَكون غنيًّا.

لا يمكننا أن نمارس السعادة من خلف زجاج النافذة، ولا يمكننا أن ننتظر السماء حتى تُمطر البهجة علينا. السعادة الحقّة هي التي تحركنا من الداخل للصعود إلى السماء، أو على الأقل، لنفتح الباب ونخرج إلى العالم. سينقضي العمر حتمًا، ولأنْ ينقضي وأنت تحاول فعل ما تُحب، خيرٌ من أن ينقضي وأنت في حسرة على نفسك.

السعادة والألم صنوان، إنهما جناحا الحياة اللذان نحلق بهما، ولا يكاد يرتفع بنا أحدهما حتى يهبط بنا الآخر، وما أجمل أن نُدرك أنه بعد كل هبوط يوجد صعودٌ جديد، كالكرة التي كلما كان اصطدامها بالأرض قويًّا، كان صعودها سريعًا. عندما يباغتني ألمٌ أدرك أن القادم أجمل، وأن هنالك كمًّا من السعادة في انتظاري غدًا إن استطعتُ أن أؤمن بهذه الفكرة، فعلى قدر الألم تكون البهجة، ولو كان غدًا هو آخر يومٍ في حياتي لتفاءلتُ بأنه سيكون أفضل من اليوم. قد تبدو هذه الفكرة سخيفة، لكن دعني أحكِ لك قصة:

يُحكى أن ضابطين كانا يأخذان أحذيتهما من قسم الملابس في الجيش استعدادًا للسفر والقتال في حرب تخوضها بلادهما. طلب أحدهما من العامل أن يعطيه حذاءً أضيق برقم واحد من

مقاسه الأصلي. وعندما كانا في طريقهما إلى الجبهة سأله صديقه عن سبب فعلته، فقال: «لكي أشعر بالسعادة عندما أخلع حذائي كل ليلة». تكمن السعادة أحيانًا في ترك الأشياء أكثر من الحصول عليها.

بُلْبُل البحر

اتّكأ على عصاه القديمة التي تُشبه تعرجاتها كثيرًا تعرجات كفّه. أمسك يدي بيده الأخرى. كانت صلبة كصارية سفينة، فتيقنتُ بأن ما قضاه في البحر كان أكثر مما قضاه على اليابسة. قال لي إن مياه البحر المالحة تزيد عطش البحارة، لكنها أيضًا تزيدهم بأسًا، ولهذا فإن البَحّار كالقارب، يبقى صلبًا حتى عند غرقه.

كان يعمل «نهّامًا» في صباه على إحدى سفن الغوص قبل اكتشاف النفط في منطقة الخليج العربي، والنهام هو الشخص الذي يُغنّي للبحارة كل يوم ليحفّزهم على العمل، ويخفف عنهم مشقة الرحلة، حيث تستمر رحلات الغوص أربعة أشهر دون أن تعود المراكب إلى الشاطئ. وقد يوجد في السفينة الواحدة أكثر من نهام؛ فالغناء اليومي يُضعف الحنجرة. وكان النهام يشارك في أعمالٍ أخرى كإنزال الغواصين الباحثين عن اللؤلؤ، وسحبهم بالحبل إلى سطح السفينة.

قال لي: «صوت النهّام بالنسبة للبحارة هو أسطوانة الأمل، وطوق الذكريات الذي يتعلقون به كلما باغتهم الحنين وأغرقتهم الذكريات». ولعذوبة صوته لُقِّبَ بـ«بُلبُل البحر» وكان صوته يصل أحيانًا إلى المراكب التي تمرّ بجانب مركبه، فتقف قليلًا للاستمتاع بألحان حنجرته.

في إحدى الليالي هبّت على السفينة عاصفة شديدة حتى كادت تُقْلَب. أخذت الأمواج ترتفع حتى تصل إلى علوّ الشراع، ثم تسقط على السفينة فتبتلع ما عليها من بشر ومؤونة. عندما أشرقت الشمس، تحولت السفينة إلى مركبٍ هَرِمٍ لا يصلح للإبحار؛ الشراع تمزّق، الأخشاب تحطّمت، الأكل يذوب في الماء، وبعض البحارة قد اختطفهم البحر دون عودة. كانت نفوس من بقي على قيد الحياة تكاد تتلاشى كالسفينة، فاضمحلّ الأمل بالعودة إلى الديار. حاول القبطان إقناع البحارة بأنهم قادرون على التجديف، إلا أن أحدًا لم ينصت إليه.

وقف بلبل البحر على جزء مرتفع من سطح السفينة، وبدأ بالغناء:

هبّت رياحك يا ليل وساد الظلام

فانبعث نور الله وعمّ السكون

الأخشاب لا تحملنا،

الأمواج لا تُغرقنا

لم نعد نخشاك يا بحر

أو نخشى المَنون

يحملنا الإيمان بالله،

ربُّنا، وربُّكَ.. وربّ الغَمام

غدًا نعود،

سيأتي الغدُ

سيأتي، بسواعدنا، بصلابتنا

سيأتي ويُلْقي السّلام

أخذ البحّارة يهزون رؤوسهم ويغنون معه. توجهوا إلى المجاديف وأمسكوا بها واصطف بعضهم خلف بعض وأنزلوها إلى المياه وبدؤوا بالتجديف وهم يكررون «سيأتي ويُلقي السلام». هرع القبطان وأمسك بأحد المجاديف أيضًا وأخذ يغني ويُجدّف معهم.

يُقال إنهم وصلوا إلى اليابسة في يومين، حيث تناوبوا على التجديف ليل نهار.. يقول البلبل إنه لم يتوقف عن الغناء في ذينك اليومين إلا للصلاة والأكل، وقال أحد البحارة الذين عاشوا ليرووا القصة إن المركب كان يسير بسرعة كبيرة، حتى ظنّوا أن الشراع لم تمزّقه الرياح.. صمت قليلًا ثم أردف: «لم

تكن المجاديف هي التي تُحرّك المركب، بل الغناء والأمل».

قبل أن يُتوفى بلبل البحر بعدة سنوات ضعف بصره، وعندما زار الطبيب قال له إن عليه أن يتوقف عن الغناء حتى لا يُصاب بالعمى، فأعصابه لم تعد تحتمل الضغط الذي يسببه الغناء على جسده.. صمت البلبل، ثم وضع يده على كتف الطبيب وقال له: «لا أستطيع، فلقد عشتُ حياتي لأنير طريق الآخرين.. بالغِناء أُبصر أكثر من عيني».

العاملُ المَنْسيّ

كنا جالسين في المطعم عندما أتى النادل بالطعام، فشكرهُ أحدنا وظل الباقون صامتين. وكلما أتى لنا بشيء، شَكَرَه مرة أخرى، حتى قال أحد الحضور: «يكفي أن تشكره مرة واحدة»، فرد عليه: «أنا أشكره لكي أشعر بالسعادة». صديقي هذا تنطبق عليه نتائج الدراسة التي قام بها البروفيسور ستيفن تويبر من جامعة كِنْت في أوهايو، على مجموعة من الطلبة، ونُشِرت قبل سنوات في دورية «دراسات السعادة». قال في ملخّصها: «إذا أردتَ أن تشعر بسعادة مطلقة، فخذ خمس عشرة دقيقة من وقتك مرة واحدة في الأسبوع، لمدة ثلاثة أسابيع، واكتب رسالة شكرٍ وامتنانٍ إلى شخص ما». واشترَطَ عليهم ألا تكون رسائل شكرهم مباشِرة؛ كأن تكون شكرًا على هدية، بل عليهم أن يعبّروا عن امتنانهم للمواقف النبيلة للأشخاص الذين يشكرونهم، ويشرحوا لهم ما يشعرون به تجاههم بالتفصيل.

وكانت النتيجة، أن مستوى سعادة هؤلاء الأشخاص ورضاهم عن حياتهم أخذ يرتفع بعد كل رسالة يكتبونها، وفي

المقابل، فإن بعض الذين كانوا يشعرون بالإحباط منهم بدؤوا يشعرون بتحسّن أكبر كلما كتبوا أكثر.

إن الامتنان لغة لا تحتاج إلى كلمات، ومعانٍ لا تحتاج إلى تفسير، فالممتنون مؤمنون عرفوا أن أحد أسرار السعادة هو ألا يُغادروا هذه الدنيا إلا وهم راضون عن أنفسهم، فما قيمة الحياة عندما نفارق من نُحبّ دون أن نعبّر عن مدى حبّنا وامتناننا لهم؟ قد تكون أي ساعة لك مع أشخاص تحبّهم هي آخر ساعة لقاء بينكم، وإذا أردتَ أن تعيش بسلام ورضى مع نفسك، فعبّر عن مدى شكرك لوجودهم في حياتك، وستبقى تلك اللحظات خالدة.

إذا كان الكرم عطاء اليد، فإن الامتنان عطاء الروح، ولا يُعبّر عن امتنانه إلا مَن كان متصالحًا مع نفسه. فالامتنان مثل الغفران؛ كلاهما من صفات النبلاء. الامتنان لا يُقلل هيبة المرء، ولا يوحي بأنه ضعيف كما يعتقد البعض. يأتي الخادم إلى أحدنا ويسأله إن كان يريد شيئًا فيجيبه بالنفي دون أن ينظر في عينيه، ناهيك عن عدم قوله شكرًا. إن المجتمع الذي يرتكب أفراده مثل هذه الأفعال يستحق أن يُطْلق عليه لقب العالم الثالث.

الممتن يحمل عالمه في داخله، لا ينتظر من يمنحه السعادة أو الرضى، فكلما قال «شكرًا!» لأحدهم صار سعيدًا، وكلما

استيقظ في الصباح صار سعيدًا، وكلما نظر في المرآة وأيقن بأنه قادر على أن يبتسم؛ صار سعيدًا.

أجرى البروفيسور روبرت إيمونس من جامعة كاليفورنيا، والبروفيسور مايكل كولو في جامعة ميامي، دراسة لمدة ثماني سنوات ليقيسا مدى تأثير الامتنان في صحة الإنسان، وقالا في ملخّصها: «إن الناس الممتنين لنعم الله يعيشون حياة صحية أفضل، ويقبلون على الحياة بحيوية أكبر. كما أن الممتنين يتعرضون أقل من غيرهم للصداع، والبثور، والغثيان»، وأطلقوا على الامتنان مصطلح «العامِل المَنْسِيّ».

وهناك من المختصّين من أوصى بجعل الامتنان ممارسة يومية تندمج في أدائها الروح والعقل والجسد، وعلى هذا الأساس تتغير حياة الإنسان بطريقة تُشْبِهُ السحر، فيتحوّل محيطه الخارجي بظروفه الصعبة، وبكآبته وسوداويته، إلى دنيا جديدة، يتمنى أحدنا لو أنه أدرك أنه يستطيع إيجادها منذ زمن. الامتنان عالَمٌ فريد تصنعه كلمة شكرًا.

هناك من يتذمّر من زوجته أو زوجه، من أطفاله، من أبويه أو إخوته، من سيارته أو عمله. أقول لكل هؤلاء المتذمرين: «هل أنتم مستعدون لخسارة الأشخاص والأشياء الذين تتذمرون منهم؟».

يقول مدير إصلاحية (سِنغ سِنغ) في نيويورك: «ثمة سبيل واحدة لكي تحصل على خير ما في مجرم شرير؛ عامله كما لو كان سيدًا شريفًا وسيستجيب لهذه المعاملة». هل تعرفون لماذا؟ لأن الامتنان يُظهِرُ أجمل ما في الإنسان.

كن ممتنًّا لأنك مؤمن، لعملك وإن صَعُبَ، للمال وإن قل، للصحة وإن تعثّرت. للهواء، لحواسك، للضحك، للدموع.. وأهم من كل ذلك، كن ممتنًّا لأن هناك من يحبك ويقبل بك، بكل عيوبك. وكن ممتنًّا لأنك قادر على الحب، وإن فشلتَ مرة، فإنك تستطيع أن تحب مرة أخرى. قال أحدهم: «من الأفضل أن نخطئ العَدّ ونحن نعدُّ نعمنا، على أن نفقِدَ نِعَمَنا ونحن نعدّ مشكلاتِنا وهمومِنا».

سألني أحد أصدقائي لماذا يراني متفائلًا دومًا؛ فقلتُ له لأن آخر شيء أقوله قبل أن أنام كل ليلة «الحمد لله»، وأول شيء أقوله عندما أستيقظ كل صباح «الحمد لله». الأولى لأنه منحني الفرصة لأحيا ذلك اليوم إلى نهايته، والثانية لأنه منحني الفرصة لأحيا يومًا آخر.

يقول الفيلسوف الصيني لاوتسي: «عندما تدركُ أنك لا تفتقرُ إلى شيء، يصبح العالم كلُّه بين يديك». وقد نتساءل: وكيف لا يفتقرُ الإنسانُ إلى شيء؟ والجواب: عندما يكون ممتنًّا لكل شيء.

كانت آثار قدمه اليُمنى تُمحى قبل أن يرفع قدمه اليسرى من الرمال. حجبت العاصفة الرملية أشعة الشمس وأحالت المكان متاهة من الغبار الأبدي. كان الشيء الوحيد الذي يبعث في قلبه الطمأنينة هو رَسَنُ ناقته الذي تعلّق به جيدًا وكأنه يطفو على بحر من الرمال. وعلى رغم صوت الرياح الذي يشبه عواء الذئب، فإن صوت أنفاس ناقته كان يريحه بعض الشيء. حدّث نفسه مرارًا بإناختها والاحتماء بجسدها مثلما يفعل البدو حتى تمرّ العاصفة، لكنه تذكر قول أبيه يومًا إن العواصف رسالة الصحراء إلى عابريها بأنه عليهم المضي قُدُمًا. لم يكن شيءٌ يقلقه غير فقدان ناقته، ليس لأنه لن يستطيع عبور الصحراء دونها فقط، ولكن لأنها الكائن الوحيد الذي لا يملّ الاستماع لثرثراته في الليل.

ظلّ يمشي مغمض العينين، مفتوح القلب، مُطْرِقًا لصوت الريح الذي أخذ يعلو أكثر وكأنّ أحدًا يريد أن يقول له شيئًا. كافح لكي يفتح عينيه لكنه لم يستطع. قرر أن يتوقف قليلًا

ويحتمي بجسد ناقته حتى يتمكن من مسح الرمال العالقة على جفنيه. فتح عينيه كالذي ينزع ورقة التصقت بصمغ، فرأى نورًا يخترق الغبار من بعيد. ظل محدقًا في ذلك النور حتى يحفظ مكانه. أغمض عينيه وسحب ناقته باتجاهه. سار عدة أمتار، وكلما اقترب من مصدر النور شعر بدفء يسري في جسده بهدوء. وصل فوجد واحة صغيرة تحفها بضع نخلات خجولات. دخل فانقطع صوت الريح وكأن الكون قد توقف عن التنفس فجأة. جال بنظره في المكان فرأى شيخًا عجوزًا قد أسند رأسه إلى إحدى النخلات وأغمض عينيه. اقترب منه فرآه مبتسمًا كأنه كان على علم بوصوله. فتح العجوز عينيه ببطء وقال:

ـ مرحبًا بك، لقد وصلت أخيرًا.

نظر الفتى حوله خشية أن يكون هذا كمينًا. ابتسم الشيخ:

ـ لا تخف، ليس هنالك أحد سواي، اجلس قليلًا.

جلس وتسمّرت عيناه على الشيخ:

ـ أعلمُ أنّك تُريد أن تعبر الصحراء. كلّنا نحاول أن نعبرها، بعضنا يفعل ذلك دون أن يشعر. الصحراء هي قَدَرُ العربي، تحمله في داخلها أكثر مما يحملها في داخله، إلا أن بعضنا ينسى وجودها ظنًّا منه أنها سبب شقائه.

ـ أليست كذلك؟ أعني، لماذا تقسو الصحراء علينا كثيرًا؟

ـ الصحراء لا تقسو، بل نحن الذين لا نفهمها. الصحراء مكان مقدّس، له شروطه، إلا أنها ليست حكرًا على فئة من الناس، ولكن، من يخلّ بتلك الشروط لا بد أن يشعر بالقسوة.

ـ وما تلك الشروط؟

ـ حسنًا، لكي تفهم الصحراء عليك أن تنصت كثيرًا حتى تسمع أكثر؛ فالصحراء لا تتحدث إلى الثرثارين. ثم عليك أن تُبقي عينيك مفتوحتين على الدوام، ولا تخف العواصف؛ فقد تملأ الصحراء عينيك بالرمال، إلا أنها ستملأ عقلك بالحكمة. وأخيرًا، عليك أن تعلم أن الصحراء ستُنصتُ إليك إذا تحدثت إليها ليلًا؛ لأنها تكون مشغولة في النهار.

ـ مشغولة بماذا؟

ـ بإرشاد القوافل التي تعبرها كل يوم. لا تظن أن القوافل تعرف طريقها لأن بها دليلًا، بل لأن الصحراء تأذن لها بالمرور. وما دليل القافلة إلا شخص قد أتقن لغة الصحراء وفهم إشاراتها؛ ولذلك فإنه يعرف طرقاتها جيدًا. إنه ينصت طوال الوقت حتى يعرف الطريق الصحيح، فكل الأصوات تسمع، إلا أصوات الحقيقة فإنها تُرى.

ـ وكيف أعبر الصحراء؟

ـ وقف الشيخ مكانه فوقف الفتى. أشاح بنظره إلى العاصفة

التي تُحيط بالواحة ثم أشار بيديه إلى أكثر الجهات امتلاءً بالأتربة وقال:

ـ الصحراء تحترم الفرسان وتسمح لهم بالمرور، إلا أنها لا تحترم من يبحث عن البطولة منفردًا.

ـ لم أفهم!

ـ عندما ينطلق مجموعة من الفرسان لخوض معركة ما فإنهم لا يهزمون أبدًا، وإن ماتوا جميعًا؛ لأنهم يصيرون حينها أسطورة. بعض الأساطير تكون ملهمة لمن تُحكى له إذا استطاع أن يؤمن بها فقط. أن تموت مع صديق، خيرٌ من أن تنتصر وحيدًا.. ادخل في تلك الدوامة وسوف تفهم ما أعني.

أخذت أصابع الفتى تداعب رسن الناقة وقد امتلأت بالعرق. سحب نفسًا عميقًا وهو ينظر إلى حيث أشار العجوز. بعد صمت قصير قاطعه حنين ناقته، قرر الدخول في الدوامة، وقرر أيضًا أن يُبقي عينيه مفتوحتين كما قال العجوز. مشى ساعة وقد اكتسى وجهه بالأتربة حتى بدا وكأنه مومياء قد قامت من قبرها، وفي وسط ذلك الإعصار الهائل، تذكر صوت والده:

ـ العواصف رسالة الصحراء.

«الجِمال تفهم لغة الصحراء» هكذا كان يعتقد، ولكن ما لغة الصحراء؟ ثم تذكر ما قاله العجوز «قمة الفروسية أن يساعد

الفارس من يمشي إلى جانبه». نظر إلى ناقته فاكتشف أن عينيها وأنفها قد امتلأت بالتراب وكادت تسقط في دوامة الرمال.

كيف نسي أنها لا تستطيع أن تمسح الرمال عن وجهها! هذا ما قاله في نفسه.

فكّ عمامته وأخذ ينظف وجهها حتى تنفست الصعداء. رفعت رقبتها الطويلة وأخذت تنظر في المكان.. أبصرت الطريق، فانطلقت تجرّ صاحبها إلى جانبها وهي تذود عنه من الأتربة. كلما توقفا لتُبصر الناقة الطريق، تكسّرت الرمال عليهما وكأنهما جبل يستحيل صعوده.

بعد أن ذابت العاصفة، فتح الفتى عينيه ببطء فانهمر شلالٌ من الرمال على وجنتيه. نظر حوله فلمح الشيخ يقترب منه مبتسمًا وهو يقول:

ـ لكي تعبر الصحراء عليك أن تواجه مخاوفك قبل أن تواجهك. ولكي تتغلب على مخاوفك فإنك تحتاج إلى صديق يخاف عليك مثلما تخاف على نفسك؛ فالخوف إذا وُزِّعَ على اثنين صار أقل رُعبًا. تهانيَّ لكما، لقد عبرتما الصحراء.

ـ كيف ونحن ما زلنا في وسطها؟

ـ بالضبط، أنتما في قلبها الآن، في أدفأ مكان يمكن للإنسان أن يكون فيه. اتجها شمالًا وسوف تصلان إلى المدينة بعد نصف يوم.

ـ يا سيدي.. قبل أن تذهب.. قُل لي كيف أعبر الصحراء مرة أخرى.

ابتسم الشيخ وقال مودعًا:

ـ ستعبر الصحراء إذا وجدتَ صديقًا يمكنك أن تشاركه الحلم نفسه.

«مجنون آخر يبحث عمّن يراسله على صندوق بريده». . كتبتها إحداهن في رسالتها التي وصلتني بعد أن أرسلتُ تغريدة على تويتر قلتُ فيها إنني أشتاق إلى رسالة مكتوبة بخط اليد، ثم وضعتُ عنوان صندوق بريدي ووعدتُ بإرسال رسالة مكتوبة بخط يدي الرديء إلى كل من يراسلني. بعد أيامٍ قليلة ذهبتُ إلى مركز البريد وعندما فتحتُ صندوقي تناثرت الرسائل على الأرض كأوراق الخريف. لم أستطع الانتظار حتى أصل البيت لفتحها وجلستُ في سيارتي أُمزّق المظاريف التي حوتها، فلقد مضى زمنٌ لم تصلني فيه عبر بريدي سوى الفواتير والرسائل الدعائية التي تخلو من مشاعر.

للأسف لم تصلني رسالة غرامية واحدة، ولكن وصلتني رسائل إنسانية كثيرة، تحكي كل منها جزءًا من حياة كاتبها أو كاتبتها. حَوَت كل رسالة خَطًّا مُختلفًا، روحًا مختلفة، رغباتٍ وانكساراتٍ، طموحاتٍ وأحلامًا، اشتياقًا والتياعًا. كانت الرسائل تنضح برائحة المشاعر المكبوتة في صدور أصحابها.

لمستُ في كلام المرسلين رغبة ملحة في «الفضفضة» والتحدث عن كل شيء، وعن أي شيء. معظم الرسائل كانت تتحدث عن الشوق إلى الحرية وانتقاد الماضي المتعسف المليء بالخطوط الحمر، كما وصفته إحداهن.

سردت إحدى المرسلات حكايات عن طفولتها في تسع رسائل متتالية لم تحمل اسمًا أو عنوانًا. كانت رسائلها تروي قصّة شُبّاك صغير يفصل بين منزلها والدكان الذي كان صاحبه يبعث رسائلها مع رسائل الخادمات في الحي. ثم تتلقى الردود من مراسليها بالطريقة نفسها حتى لا يكتشف والدها أنها تراسل أصدقاء وصديقات في مختلف بقاع العالم، علمًا أن رسائلها لم تكن عاطفية. ثم حكت عن قصاصات الروزنامة التي كانت تصدر من مؤسسة الشؤون الإسلامية، تلك التي تحوي التأريخ الميلادي والهجري ومواقيت الصلاة، وخلف كل ورقة كُتِبَت حكمة ما. كانت أمها تطلب منها أن تقرأ لها الحكمة كل يوم، وبعد وفاة أمها استمرت تقرأ تلك القصاصات.

إن كتابة الرسائل تعد فنًّا أدبيًا رفيعًا لأنها تصوّر الحالة الشعورية لصاحبها إذ يتجرّد من كل قيد وشرط، ليكتب بروحه لا بقلمه. ففي كتاب «جواهر الأدب» للسيد أحمد الهاشمي نجد أنواعًا مختلفة من الرسائل، كرسائل الشوق، والتعارف، والملام وغيرها. لا تخلو من لغة رصينة، ومشاعرَ دفينة، ورموزٍ يحتاج

فكّها إلى إلمام بالشعر والبلاغة. كَتب الهاشمي رسالة إلى أحد أصدقائه بدأها بقوله: «كتابي لديك يصفُ شوقي إليك، ولا يخفى عليك، فمُذ فارقتني فرّقت بين أُنسي ونفسي، بل بين روحي وجسمي..» ثم ختمها: «فلا عجب إن كان شوقي لرؤيتك عظيمًا لأنه كما قيل، مِن كَرم الرّجل حنينه إلى أوطانهِ وشوقه إلى إخوانه».

انتَقَدَتْ إحدى الرسائل التي وصلتني التكنولوجيا، واتهمها صاحبها بأنها أصابت مشاعرنا بالبلادة حيث قال: «الكتابة الإلكترونية تعطينا مجالًا للمسح وطمس نقاط ضعفنا وترددنا». وجدت كلامه جَلِيًا في مخطوطات جبران الأصلية التي لا تكاد تُقرأ لكثرة ما يُبدّل الكلمة الواحدة، أو لتكرار شطبه للجُمَلِ وإعادة صياغتها من جديد، ما يدلنا على الشخصية القلقة التي كان يعانيها.. ولربما كان قلقه أحد أسرار إبداعه.

لقد خلَت بعض الرسائل التي وصلتني من تاريخ وعنوان، وأظن أن أصحابها كانوا يرغبون في تخليدها، كانوا يريدون الهروب من الزمان والمكان، لتبقى ذكرى خلف برزخ الأمنيات، لا تدري متى بدأت ومتى تنصرف.

أرفقت لي صاحبة قصاصات الروزنامة قصاصة قطعتها بتاريخ 8 ديسمبر 2011 كُتِب عليها: «نحن نتقابل مع الناس كل

لحظة، لكننا لا نتقابل مع أنفسنا إلا نادرًا». جلستُ أفكّر في هذه المقولة طوال رحلة بالطائرة استغرقت ست عشرة ساعة، فوجدتُني أكتب على الورق على غير عادتي لأكتشفَ مدى ابتعادي عن نفسي، فما أصعب أن ندوّن حديثنا عن أنفسنا على الورق، وما أقسى أن نُحبّ على الورق، أن نشتاق على الورق، أن ننتظر ونتذكر ثم نبكي على الورق..

الرسائل تحيل الأوراق إلى حياة كاملة، منتشية بتفاصيل من نهوى، أو موتٍ كامل، ينضح بالاشتياق إليهم. كم تحكي الحروف التي كُتِبَت بأيدينا عنّا، عمّا كُنّا، عما نريد أن نكون، أو ألا نكون. الأوراق تجعلنا نقف كثيرًا لنفكر أكثر، وهذا الفعل يدفعنا إلى التواصل مع أنفسنا والغوص في أعماقها. ثم توصلت قبل هبوط الطائرة إلى أن الكتابة على الورق هي أحد الأماكن التي نتقابل فيها مع أنفسنا.

حكت لي إحداهن عن محاولاتها الفاشلة للانتحار، ثم عن مدى حُبّها للحياة بعد أن عادت إليها، ولذلك رغبت في كتابة رسالة بخط يدها وإرسالها إلى أي كان، فالمهم أن يقرأها أحد. أما أجمل رسالة وصلتني فلقد كُتِبَ فيها: «بعض رسائلنا نكتبها لأنفسنا قبل أن نكتبها للآخرين، وبهذا فإننا لا نعبأ حقًّا إن ألصقنا عليها طابعًا أم اكتفينا برميها في أول صندوق يصادفنا في الطرقات».

محبّة مُبَلَّلة

يُغمضُ عينيه عندما يقفزَ إلى المياه، لا خوفًا مِن البحر؛ بل لكي يعطي قلبه فرصة ليرى. العين محدودة القدرة، ترى في النور فقط، أما القلب فله قدرات خارقة، يرى في العتمة، وتحت الماء. ما إن تلامس رجله الماء حتى يسافر في الكون.. هكذا كان جدّي يحكي عن البحر. «في البحر تصنع أحلامك مثلما يصنع الصياد شباكه على شواطئه، هو تحُدّهُ قوة ساعديه وأنت يحدّك حجم رئتيك. البحر مثل الفضاء، لا يتّسع للهواء لكنه يتّسع للأحلام».

كان الرجال في منطقة الخليج العربي يرحلون كل صيف لمدة أربعة أشهر ليستخرجوا اللؤلؤ من قاع البحر. لم تكن الحياة قاسية كما يُقال، بل كانت تريد أن تصنع منهم رجالًا قادرين على صناعة المستقبل.

لقد وحّدت هذه المهنة أبناء المدن المتناثرة على ساحل الخليج العربي، فلا شيء يوحّد الناس مثل الشقاء والحب، فتحول البحر إلى حيّهم الكبير، وصارت سفنهم بيوتًا تفوح

برائحة الملح والشوق والقهوة. يعتقد العرب أنهم عندما يشتركون في أكل الملح فإنهم يصيرون إخوة، وعندما يشتركون في شرب القهوة فإنهم يقضون على الغُربة.

قال جدّي:

«كنا نغوص بحثًا عن اللؤلؤ، وبعد أن ينتهي موسم الغوص ويبيع صاحب المركب الذي نعمل عنده ما جمعناه من لؤلؤ، يعطينا حصتنا منه. كانت تلك القطع الصغيرة المحبوسة في فم المحار والمنسية في قعر البحر هي اقتصادنا ومصدر رزقنا. إن قيمة المعادن ليست في صلابتها وقدرتها على تحمل ثقل الزمن، وليست في جمالها فقط، بل في صعوبة الحصول عليها. اللؤلؤ والذهب من أغلى معادن الأرض، فالأول يستخرج من باطن البحر، والثاني يستخرج من باطن الأرض.. كل هذا حتى يتباهى الناس بهما في الأفراح والأعياد. هناكَ من يموتُ ليحيا غيره بالفرحة، هكذا هي الحياة، يستحق أحدهم ما لا يملك، ويملك أحدهم ما لا يستحق.

غصتُ في أحد الأيام وكانت المياه باردة، وعندما اقتربتُ من قاع البحر كان الرمل المتطاير يملأ المكان، ولم أستطع أن أرى شيئًا. حاولت أن أتلمّس طريقي بيدي وأضع كل محارة تلامسها أصابعي في السلة التي كانت معلّقة في رقبتي. وبينما أنا كذلك، وقعت يدي على محارة كبيرة شعرتُ بأنها تحوي لؤلؤة

ثمينة، ولكن لسوء الحظ كان أحد زملائي قد سبقني إليها، وعندما أيقنتُ أن يده كانت فوقها رفعتُ يدي عنها وأكملتُ طريقي.

عدنا إلى سطح المركب وبدأنا بفتح المحار. وضعتُ يدي في السلة فوجدت المحارة الكبيرة نفسها التي لمستها في القاع. فتحتُها بصعوبة، وما كدتُ أزيح الطبقة العلوية حتى أشرقت لؤلؤة كبيرة في داخلها يسميها البحارة «دانة». نظرتُ في وجه صديقي فابتسم وأومأ برأسه وعاد ليكمل فتح المحار الذي جمعه في سلّته.

كنتُ فقيرًا جدًّا، ولكن بما أن الدانة قد وُجدَت في سلّتي فقد قرر صاحب المركب أن يُعطيني مبلغًا إضافيًّا إكرامًا لي. ابتعتُ مركبًا صغيرًا لنقل البضائع، وبعد زمن صرت أملكُ عدة مراكب. ثم ظهر النفط وانتهى الغوص على اللؤلؤ، وذات يوم لقيتُ ذلك الرجل الذي وضع المحارة في سلتي فسألته عن سبب فعلته، فقال:

ـ لم أفعل ذلك لأنني كنتُ أعلم أنك فقير، بل لأنني أدركتُ أن قدرك أن تكون غنيًّا، وكنتَ تنتظر الفرصة المناسبة.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ عندما كنا في قاع البحر ذلك اليوم كانت سلتي مليئة بالمحار، وكلما وضعتُ تلك المحارة الكبيرة فيها وقعت منها.

حاولت أن أعيدها عدة مرات وكانت تقع في كل مرة، فقررتُ أن أعيدها إلى البحر لأنها لم تكن من نصيبي، وعندما لامست يدك يدي ورفَعتها اعترافًا منكَ بحقي في المحارة أدركتُ أن الله قد كتبها لك، لأن من يحترم حق الآخرين يصبح جديرًا بمشاركتهم إياه، فوضعتها في سلّتك متأملًا أن تغيّر حياتك. «إن من يزرع الفرحة في قلوب من حوله يحصد السعادة» هكذا كان يقول والدي. . لن تصدقني إذا قلتُ لك إنني أملكُ اليوم عددًا من محال البهارات، بعضها في الهند وبعضها في دبي.

أكمل جدّي ما تبقى من قهوة في فنجانه. فتح صندوقًا صغيرًا وأخرج الدانة. وضعها في يدي وقال: «الوفاء فقط ما يجعلنا أغنياء».

قبل النوم

كنت في السيارة مع صديقين يكبرانني في السن، وكنتُ مرهقًا من المذاكرة والإعداد لامتحانات الثانوية العامة، فقلتُ لهما: «عندما تنتهي الامتحانات سينزاح جبلٌ عن كتفي، ومهما كانت الأيام القادمة ثقيلة فإنها لن تكون بثقل هذه الأيام»، ضحك أحدهما وقال: «صدّقني، كل ما هو قادمٌ سيكون أثقل من هذه الأيام»، فكنستُ كلامه بيدي في إشارة إلى عدم اقتناعي به.

واليوم لا تمضي سنة دون أن أتذكر ذلك الحوار، فلقد صَدَقت توقعاته، وصارت أيام الثانوية العامة، مقارنة بحياتي الآن، أقل همًّا وتحديًا. كان همّي محصورًا في المذاكرة، ويمكنني أن ألخص قلقي حينها بكلمة «تافه» دون الحاجة إلى تفصيل.

لم أكن أحب المدرسة عندما كنتُ فيها، ولا أتمنى العودة إلى تلك الأيام، فلكل مرحلة من الحياة لذّتها التي تأتي من التغلب على العراقيل وتحقيق نجاحات بسيطة. لكنني أتمنى

أحيانًا أن أعود إلى المزاج الفكري البسيط الذي كنا نتحلى به أنا وأترابي في تلك الفترة.

فلقد كنتُ لا أكفّ عن قراءة القصص والروايات، وبدأتُ بقراءة كتب علي الطنطاوي، ثم المنفلوطي والرافعي ونجيب محفوظ وطه حسين وغيرهم، وكنت لا أقرأ إلا قبل النوم، ولا أتصل بأصحابي لأسألهم عن شيء إلا قبل النوم أيضًا.

وأعترف بأنني لم أكن أستسيغ جبران حتى عام 2000 عندما غضب مني أخي عارف واتهمني حينها بأنني لا أتذوق الأدب، ثم أصرّ على أن أقرأ قصّة «الأجنحة المتكسرة» التي قادتني إلى عشق جبران.

وعندما سافرنا إلى لبنان في العام 2004 كان أول عمل قمنا به أنا وعارف هو زيارة متحف جبران وشراء مجموعته كاملة. ثم تعلقتُ بميخائيل نعيمة، وصرتُ أتبادل مع عارف كتبه، وعندما يقرأ أحدنا شيئًا من كتاباته أو كتابات جبران فإنه يرسله للآخر في رسالة نصية قبل النوم.

ثم كنتُ، وما زلتُ، أحتفظ بدواوين لشعرائي المفضلين، كالمتنبي وأبي فراس وأبي نواس وأبي تمام والبحتري والفرزدق ونزار، بجانب رأسي، فلا أنام حتى أقرأ قصيدة أو ربما أكثر. ومعظم اطلاعي وقراءاتي تكون قبل النوم.

وعندما أشاهد فيلمًا فإنني أفعل ذلك قبل النوم، وعندما أتذكر شخصًا أحبه فإن ذكراه تزورني قبل النوم، وعندما أستمع إلى موسيقاي المفضلة فإنني أفعل ذلك قبل النوم أيضًا. يا إلهي، يبدو أن الأشياء الجميلة لا تراودنا إلا قبل النوم مباشرة! فحين أقرأ مسوّدات مقالاتي، التي أكتب فيها تاريخ ووقت الكتابة بالضبط، أجد أن أغلبيتها العظمى خُطّت قبل النوم، وعندما أقرأ عن الأدباء والشعراء تَكثُر كلمة «يتسامرون» وتتكرر في حكاياتهم.

كتبتُ هذا الموضوع قبل النّوم، ولذلك آثرتُ ألا أرتّب الكلام فيه أو أُنمّقه، وأحببته غير مترابط ومُشتَتًا لأنه وُلِدَ في الساعة الثانية ليلًا ـ لا أدري لماذا يقولون الثانية صباحًا ـ وهذا أحب عمل أقوم به في حياتي؛ أن أكتب ليلًا.

كنت أقرأ عن الطقوس الغريبة التي يمارسها الكُتّاب قبل البدء بالكتابة، فوجدتُ أن منهم من يشم تفاحة، ومنهم من يغسل الأطباق، ومنهم من يكتب واقفًا وهو ينظر من نافذة غرفته، أما أغربهم فكان يخلع ملابسه ويتسلّق شجرة حتى يأتيه الإلهام، ويُقال إن فيكتور هوغو كان من أولئك، لكنني لستُ متأكدًا من هذه المعلومة.

إلا أن كثيرًا من الكُتّاب كانوا يكتبون مساءً، ومعظم الولادات تحصل مساءً، وكل الأعراس تقريبًا في بلادنا تُقام

بالليل. ما أروع المساء كيف يفصل بين الأشياء التي نحبها حقًّا وبين التي نظن أننا نحبها.

أرجو منك أن تُفكّر الآن في الأشياء التي تفعلها قبل النوم، والأشخاص الذين تتذكرهم قبل النوم، ثم دوّنها في دفتر صغير واحرص على ألا تُفرّط بها أو بهم، لأنها ولأنهم من سيبقون لك بعد انقضاء سنوات العمر. أراهنك بأنك ستقوم بهذا العمل قبل النوم. يبدو أننا في الصباح نقوم بالأشياء الضرورية، أما في المساء فإننا نمارس الأشياء الجميلة.

هل الرُّبْعُ خالٍ؟

في إحدى أكبر صحاري العالم وأكثرها قسوة، في جنوب الجزيرة العربية، يقع الربع الخالي. يعتبره البعض أكثر الأماكن وحشة على وجه الأرض، فإلى جانب عقاربه وأفاعيه السامة، فإنه مليء بالرمال المتحركة التي تبلع العابرين. يقول المغامر الإنجليزي ويلفريد ثيسيجر الملقب بـ«مبارك بن لندن» إنه عندما عزم على عبور ذلك المكان مع البدو سألهم عن صحراء الربع الخالي، فلم يفهموا ما يقصد، فقال له أحدهم: «تقصد الرّمْلة» فقال له نعم، إذ لم يكن البدو يعرفون ذلك الاسم.

كان جدي يحدثنا عن حكايات الصحراء، وعندما يذكر الربع الخالي كان يصمت برهة وينظر إلى الأرض، ثم يرفع رأسه ويطلق نظره إلى الأفق وكأنه يعيد رسم ماضٍ بعيد. «بعض الحكايات لا ينبغي كتمانها» هكذا كان يقول، فالأماكن تبوح بالقصص رغمًا عن صمت ساكنيها. عندما زرتُ الربع الخالي أول مرة، سكنني الصمت نفسه الذي كان يراود جدي كلما أراد التحدث عنه، شعرتُ بأن في ذلك المكان قصصًا لم تُروَ بعد. لا

شيء هناك سوى الرمال، حتى الريح لا تعوي بالليل كما تفعل في أماكن أخرى. للصحراء هيبة لا يكسرها غير الصبر.

الحياة تسرق منك كبرياءك أحيانًا، والصحراء تمنحك إياه. الصحراء تعيد تشكيل روحك، وتجعلك أكثر محبة وسلامًا مع الآخرين. قال لي جدي مرة إن على أحدنا أن يتقاسم ما يملك مع من يعبر الصحراء معه؛ فالصحراء ليست مكانًا للاحتفاظ بالأشياء الثمينة، إنها المكان الوحيد الذي نشعر فيه بالغبطة كلما أعطينا أكثر.

حكى لي قصة أربعة رجال كانوا يعبرون الربع الخالي، وبعد نفاد مؤونتهم، اشتد عليهم العطش، لكنهم فضّلوا المسير على الاستسلام لليأس. وبينما هم يمشون، رأوا مجموعة من بيوت الشَّعر مغروسة في الرمال بجانب بئر ماء، وعندما اقتربوا من المضارب استقبلهم بدوي ودعاهم إلى بيته. دخلوا وقد اعتلت ملامح التعب وجوههم، خرج مضيفهم فذبح نعْجةً وطبخها ثم قدّم إليهم الطعام. بعد أن فرغوا من الأكل، تركهم ليرتاحوا وخرج من الخيمة. قال أحد الرجال لرفقائه:

ـ هل لاحظتم أن الرجل لا يملك سوى نعجتين؟

فرد أحدهم:

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ انظر هناك، كانت نعجتان مربوطتان إلى جانب تلك الناقة في طرف خيمته، والآن لا توجد إلا واحدة.

صمت الرجال وفضّلوا الاستلقاء وأخذ قسط من الراحة. في اليوم التالي استيقظوا فوجدوه يطهو النعجة الثانية، فقالوا له إنهم قد اكتفوا بعشاء الأمس. استمرّ في الطهو صامتًا. عندما فرغوا من الطعام، استأذنهم المضيف في الخروج لنصف نهار وقال إن زوجته وابنه الصغير موجودان في الخيمة المجاورة، وسيقومان بخدمتهم إن احتاجوا شيئًا. عندما تأكدوا أنه انصرف نادوا زوجته وأعطوها مبلغًا من المال يساوي قيمة عدة نعاج، ثم انصرفوا.

بعد مسيرة يوم جلسوا يستريحون عند بئر ماء التفّت حولها مجموعة أشجار ظليلة، وبينما هم كذلك رأوا طيف رجل يقترب من بعيد، وعندما وصل كان البدوي الذي استضافهم بالأمس.

نزل عن ناقته وقد تمعّر وجهه وتقطّب حاجباه، وقال:

ـ ألا تخجلون من فعلتكم؟ كيف تنصرفون قبل عودتي؟ ولماذا تركتم ذلك المال؟

ردّ أحدهم:

ـ عندما أدركنا أنك لا تملك سوى تينك النعجتين لم نشأ أن نثقل عليك بضيافتنا، وأردنا أن نساعدك لتشتري نعجات أخريات.

قاطعه البدوي:

ـ ليس للعطاء مقابل، ولو أن كل شخص سكن الصحراء أخذ ثمنًا لقاء ضيافته لأصبحت الصحراء مقفرة جدًّا. لقد وضعني الله في طريقكم، وذلك سبب كافٍ لكي أقوم بخدمتكم.

ثم أعاد إليهم المال وقال:

ـ تركتكم وذهبت أبحث عن راعي أغنامي، فلقد تأخر في عودته. لدي قطيع من الأغنام، وكلما ذبحتُ لضيف نعجة وُلِدَت نعجة أخرى. عندما نكون أداة من أدوات الكون، يمنحنا الله ما يساعدنا على تأدية مهمتنا.

في مكان ما، في اللا مكان، يقع الربع الخالي. يقول جدي: «الربع الخالي ليس خاليًا، هناك أحد ما في انتظارك دائمًا. كل ما عليك فعله هو أن تُكْمِل المسير حتى تصل إليه».

عندما كنت صغيرًا كان ابن عمّتي يدرس في أمريكا، ولأنه كان الحفيد الوحيد الذي غامر، في تلك الأيام، وسافر عبر الكرة الأرضية للدراسة، كان سفره وعودته حدثين مشهودين في حياة العائلة بأسرها.

ففي يوم سفره كنا نجتمع في بيت عمتي لتوديعه. النساء يقبلنه ويحتضنّه ثم يبكين ويدعون له، أما الرجال فينطلقون خلفه بسياراتهم في موكب كبير.

وفي يوم عودته، كان أفراد العائلة يملؤون قاعة الاستقبال في المطار احتفاء بقدومه، ولم تكن عمتي تتوانى عن إعداد وليمة ضخمة لاستقباله وكل أفراد العائلة الذين أتوا لتهنئتها بسلامة وصوله.

لقد كان السفر في الثمانينيات حدثًا أسريًّا واجتماعيًّا، فلا يفوت المسافر، وإن كان ذاهبًا للسياحة، أن يزور أهله وأصدقاءه قبل السفر للسلام عليهم، أو كما كان يُقال «لتوديعهم» في مشهد

درامي مليء بالدموع، وكأنه ذاهب إلى حرب قد لا يعود منها. وغالبًا ما كان يحدث ذلك عند السفر بالطائرة، أما إن كان بالسيارة فإنه لم يكن يعتبر سفرًا حقيقيًّا.

تبهرني الطائرة كثيرًا، وبرغم كثرة أسفاري فإنني لا أنفكّ أفكّر في الجانب العلمي، والعجائبي، الذي تمثله لنا كبشر. فما عادت مجرد آلة، بل أصبحت مؤشرًا على التقدم الحضاري للبشرية، وعنصرًا حيويًّا يخلق رؤى جديدة لنظرة الإنسان إلى حياته ومتطلباته.

ولكن، ألغت الطائرة، إلى حدٍّ بعيد، فكرة المغامرة. فيمكن لقارئ هذا الكتاب أن يصل إلى القطب المتجمد الشمالي قبل الانتهاء منه، ولذلك فإننا لم نعد نشعر بأننا نفارق حقًّا. إلى جانب هذا، فإنك قد تطلب كتابًا من شركة أمازون القابعة في مدينة سياتل، ويصلك بالطائرة خلال يومين؛ أي إن شراء كتاب من سياتل صار أسهل من ذهابك إلى إحدى المكتبات الموجودة في مدينتك، وخصوصًا إذا كانت شوارعها مزدحمة معظم الوقت.

لقد جعلتنا الطائرة أقل اهتمامًا بالمشاعر؛ حيث إنني أكتب هذا الموضوع وأنا خارج البلاد ولم أكابد عناء إخبار إخوتي وأخواتي بسفري. يقع بيت أخي خلف بيتي ولا يعلم أحدنا متى سافر الآخر ومتى عاد، كل ما يهمنا هو أن نجتمع في بيت العائلة للغداء يوم الجمعة.

لم نعد نحرص على أن يودع بعضنا بعضًا ويتمنى له السلامة في السفر، وفي الحقيقة فإنه لم يعد يهمّنا إن ابتعد أحدنا أو اقترب، وأُجزم بأن الطائرة هي السبب الرئيس في هذا البرود الاجتماعي الذي تعانيه معظم مجتمعات العالم.

قد تصيبنا الطائرة بالإحباط والملل في أحيانٍ كثيرة، على رغم أنها تمنحنا شيئًا من الحماسة أحيانًا، إلا أنها حماسة مؤقتة ما تفتأ تتراجع عندما نعود لزيارة المكان نفسه مرة ثانية، وإن بطائرة أكثر تسلية وسرعة من التي حملتنا إليه قبل عدة أشهر. وبسبب الطائرة، صرنا أكثر تهربًا من التزاماتنا الاجتماعية في الأعياد والمناسبات، وباتت الرسائل النصية الباردة كافية للتعبير عن *مشاعرنا الأكثر برودة، تجاه أهلنا وأحبابنا*.

لقد أصبحنا أقل انبهارًا من ذي قبل بسبب الطائرة؛ فما عدنا نتسامر بالحديث كلٌّ عن رحلاته واكتشافاته الجغرافية الجديدة، فقد تتحدث عن زيارة مدينة ما، ثم تكتشف أن معظم الجالسين معك قد زاروها منذ مدة وجيزة. يبدو لي أننا فقدنا كثيرًا من الأحاسيس الجميلة في سبيل الحصول على أشياء جميلة، وننسى أنها تكون جميلة حقًّا عندما نشعر بها وليس عندما نحصل عليها.

أكتب لكم هذا الموضوع من الطائرة، ومن جهاز آيفون، وكم أشعر بالسخرية من نفسي الآن عندما تذكرتُ أنني طلبت من مضيفة قبل بضع سنوات ورقة وقلمًا لأكتب نصًّا. لقد كان شعورًا

مميزًا عندما انتهيتُ حينها من الكتابة؛ فلقد أحسست بأنني كاتب فذ يكتب في أي مكان وتحت أي ظرف.. يا للحماقة! ها أنذا الآن أكتب في جهاز ذكي ذي لوحة مفاتيح تنير في الظلام، إلا أنني ما عدت أشعر بتلك السعادة، ربما لأنني لستُ فذًّا كما كنت أتصور، أو ربما، لأن الطائرة لم تعد مغوية مثلما كانت قبل سنوات.

ها نحن ذا نسافر ونعود، كما كان يفعل ابن عمّتي، دون أن يودعنا أو يستقبلنا أحد. ليس لأنه لا أحد يهتم بنا، ولكن لأن السفر لم يعد كما كان، عملًا يثير الشجن، ويهزّ المشاعر لما فيه من فراق ولقاء.

أنا لا ألوم الطائرة، فلقد جعلت حياتنا أسهل وأسرع. ولا ألوم البشرية، لأنها تحيا وتنمو أكثر كلما اخترعت أكثر. وما عدتُ أطالب أحدًا بأن يستقبلني في المطار، فسيارات التاكسي صارت تملأ المدينة. ولكنني أرجو ألا يأتي يوم يُرسَل فيه الموتى إلى المقبرة في سيارة تاكسي، ثم نبعث إلى ذويهم رسالة نصية نعزيهم فيها، وقضي الأمر.

ظِلُّ القِدّيسات

لا يكاد يخلو بيت في الجزيرة العربية من نخلات يزيّنّ فِناءه ويحطن به كجنود يحرسونه طوال اليوم. فلقد تعود أهل الجزيرة منذ القِدَم وجود الرطب على موائد طعامهم، كما أن النخلة هي أكثر النباتات التي تحتمل قسوة الصحراء، وتقابل تلك القسوة بتمرات تبلّ الحلق وتسند البدن.

النخلة بالنسبة إلى العربي مأوى يلجأ إليه هربًا من شظف العيش وقسوة الحياة، فهي لا تكتفي بتزويده بالرطب فقط، بل تمنحه من سعفها مسكنًا وقاربًا وظلًّا يقيه حرارة أرضه القاسية. النخلة والجمل كانا دعامتي اقتصاد العربي في الصحراء، كالوقود والسيارة في أيامنا هذه.

روَت لي جدّتي هذه القصة:

«في يوم من الأيام اشترى جدك مزرعة صغيرة مليئة بالنخيل، قضينا بها أجمل سنوات حياتنا. وبرغم سفر جدك المستمر، فإنني لم أشعر بالوحدة يومًا. كانت النخلات أهلي

وأصدقائي وجيراني. كنت أعرف أسماءهن مثلما أعرف أسماء أبنائي، وأتحدث إليهن في كل شيء. النخلات يا بنيّ، يفهمن البشر ويتحدثن معهم لكن بهدوء. فهنّ يكبرن بهدوء، ويُنبتن الرطب بهدوء أيضًا. فالأشجار ليست في عجلة من أمرها، ولذلك فإنها لا تقول كل شيء دفعة واحدة، وتنصت أكثر مما تقول. وحده الصبور يستطيع فهم لغتها. النخلة يا بني شجرة حكيمة، تطيل التأمل وتمعن الإنصات، ولذلك تجد واحات الصحراء مليئة بالنخيل، فلا مكان في الصحراء للمندفعين لأنهم سيُلاقون حتفهم حتمًا.

بعد عشر سنوات قرر جدك الرحيل من تلك الواحة الصغيرة للعمل في المدينة، فبعنا المزرعة وغادرنا. ثم مرّ عام وشاءت الأقدار أن نمرّ بالواحة في طريقنا إلى إحدى القرى الداخلية لزيارة أم جدّك، وعندما توقّفنا عند المزرعة وجدنا بعض النخلات قد طأطأن رؤوسهن حتى لامسن الأرض. كان كل شيء في تلك البقعة الجميلة قد تحول إلى اللون الرمادي. قال لنا الرجل الذي اشترى المزرعة إن المكان بدأ بالتغير بعد أن رحلنا بأيام، إذ بدأ اللون الأخضر يغادر السعفات، وبدأت جذوع النخيل تضمر شيئًا فشيئًا على رغم توافر المياه. وعندما سألته عن السبب قال:

«للنخيل أرواح مثل البشر، ولها ذاكرة مثلنا أيضًا. عندما

يتعلق النخل بشخص ما فإن حياته تكون منوطة بذلك الإنسان، وبعد أن رحلتم، لم تعد النخلات قادرات على البقاء، فقررن الرحيل أيضًا. إن ذاكرة المكان تكون أقسى أحيانًا من الفراق نفسه».

- وهل بكيتِ يا جدتي؟

- كلا يا بني، لا يبكي إلا من نسي ثم تذكر فجأة، أما أنا فإنني أحمل نخلاتي في قلبي منذ فارقت الواحة. حزنتُ قليلًا، إلا أنني أدركتُ أن النخلات قد قمن بعملهن على أكمل وجه، فلقد منحنني الغذاء والأمان والحكايا، وعندما انتهى دورهن رحلن ببساطة، فالحياة التي لا دور لنا فيها، لا مكان لنا فيها.

- لماذا تحبين النخلة كثيرًا يا جدتي؟

- لأن النخلة يا بني مجتهدة وصبورة، تحمل رسالة مقدّسة في الحياة. هل قرأتَ سورة مريم؟

- بالطبع.

- في سورة مريم، عندما خافت العذراء من الحمل الذي منحها الله إياه دون زوج، لجأت إلى نخلة وتمسّكت بجذعها، أتعلم لماذا؟ كي تشعر بالإيمان والقوة. جذع النخلة يا بني يشبه الأعمدة العملاقة التي تحمل المعابد والأماكن المقدّسة، يلجأ إليها الناس بحثًا عن الإيمان.. أو بحثًا عن الله.

إلا أن الرطب لم يسقط على مريم مِن تلقاء نفسه، بل إن الله قد أمرها بأن تهزّ جذع النخلة حتى يحدث ذلك.

- ولكن جذع النخلة لا يهتز، فكيف تساقط الرطب عليها؟

- فعلًا، جذع النخلة سميك ولا يمكن هزّه، لكنها إشارة إلى مريم وإلى الناس أجمعين بأنهم إذا أرادوا الحصول على الرزق، فعليهم أن يبذلوا جهدًا، ولو رمزيًّا. فالله ليس في حاجة إلى أعمالهم لكي يرزقهم، لكنه يريد أن يرى إخلاصهم، والإخلاص يكون بالمحاولة وليس بالدعاء فقط.

كلما أتعبتك الحياة يا بني وحجبت عنك الرؤية، ابحث عن نخلة واجلس تحتها. أغمض عينيك واسند رأسك إلى جذعها، وتذكّر أن ما مرّت به مريم ومرّ به عيسى عليه السلام كان أشدّ مما مررت به، إلا أنهما لم يتوقفا عن الحُلم بغد أفضل، ولم يترددا في العمل من أجل إسعاد الناس. مهمة الإنسان يا بني لا تكمن في منح السعادة، لكنها في إرشاد الناس إلى الطريق المؤدية إليها.

عندما تكبر احرص على زرع نخلة في بيتك، فالنخلة ظلّ القديسات والرُّسُل.

كيف تسلق بيضة؟

عندما كنت طالبًا في الجامعة، أخبرنا أحد أساتذة تقنية المعلومات بأنه سيهاجر إلى الولايات المتحدة للتدريس في إحدى جامعاتها المتخصصة في التكنولوجيا، حيث أُعجبت الجامعة بأطروحته حول الذكاء الاصطناعي التي عكف يعمل عليها سنوات، فقدمت له عرضًا بمنحه مختبرًا مزودًا بالأجهزة التي يحتاج إليها ليكمل بحثه.

إضافة إلى ذلك، خصصت مجموعة من طلبة الدكتوراه لمساعدته، إلا أنه ـ كما قال ـ لم يتوقع أن يصل إلى النتيجة المرجوة في حياته لأنه جاوز السبعين. عندها لم أتمالك نفسي من الدهشة، فقال مستدركًا: «تعلم الجامعة أنني قد أموت قبل أن أنهي بحثي، ولذلك وضَعَت لي ثمانية طلاب لمساعدتي، وحتى يُكملوا البحث بعد وفاتي». تساءلتُ حينها: لماذا لا تيأس تلك المراكز البحثية من المحاولة؟ كيف تغامر بأموالها مع رجل في هذه السن؟ وبعد سنوات من الاطلاع والتفكير توصلت إلى نتيجة مفادها أن المعرفة في المجتمعات الحيّة قيمة عُليا، حيث

لا يستنكف أحد عن قضاء حياته كلها بحثًا في موضوع ما، فنتائج الأبحاث لا يمكن أن تُقاس كنتائج البنوك، وما أجمل المجتمع الذي يصير البحث فيه عن المعلومة هدفًا في حدّ ذاته.

نفتقد هذا الشغف كثيرًا في مجتمعاتنا العربية، كما نفتقد ثقافة احترام المعرفة وتقديرها، خصوصًا عندما تكون خارج دائرة اهتماماتنا. كُنتُ مرة في أحد معارض الكتب، فأخذتُ كتابًا عن «التاريخ الكوني للشوكولاتة» وبدأت أتصفحه. مرّ بي أحدهم وقال: «لا تضيع وقتك في قراءة علمٍ لا ينفع». لم أرد عليه وتجاهلته متقدمًا إلى البائع لشراء الكتاب. إنها كارثة ثقافية عندما نصنّف ما نجهل وما لا نحب تحت باب «علم لا ينفع»، والكارثة الأكبر هي عندما لا نقوم في حياتنا بشيء ينفع، لنغدو عندها عالة على الثقافة، فتصبح الصحف والمواقع الإخبارية مصادر معلوماتنا، ويكفي عندها أن نتحدث حول بضع قضايا سياسية في المجالس العامة لكي ينبهر بنا الحاضرون ويصفونا بأننا مثقفون!

إن احتقارنا للمعرفة، مهما صغرت، جاهلية حضارية، وجريمة تاريخية نرتكبها في حق أوطاننا والأجيال القادمة، وعلينا ألا نستغرب عندما تنتشر في مجتمعاتنا ثقافة الشائعات والنميمة، فعندما يغادر الفهم عقل الإنسان، تحل السطحية مكانه، ويتحول الناس إلى مرتزقة في العلم، لا يملكون إلا التصعلك في الأحاديث العامة، والتسكّع في أعراض الناس والخوض في تفاصيل حياتهم.

الغريب أن كثيرًا منا يقللون من شأن المعرفة بتصرفاتهم وبأقوالهم، ومن ثم لا ينفكون يدّعون العلم في شتى الميادين عندما يُسألون، ولا يفتؤون يشاركون في كل حوار بتكرار ما يتذكرونه من نشرات الأخبار التي شاهدوها في الليلة الماضية.

ولذلك، نجد ضحالة في المستويات الفكرية، فلا أحد مهتم بالقراءة حول موضوع ما قبل الخوض فيه، وقلما تجد من يؤمن بفكرة التخصص في مجال واحد، وهنا أتساءل: هل نحن قوم لا نستحيي من الجهل؟ أم إننا نجهل أننا جاهلون؟

إن هذه «العقلية العامّة» كما أحب أن أسميها، تُفقد المجتمع قدرته على الابتكار، وتجعل من الصعب على المبدعين أن يُنتجوا ويستمروا في إبداعاتهم في مجتمع لا يستوعب أهمية المعلومة، ومن ثم لا يقدر المبدعين، ولو علمنا أن نجاح أحدنا هو نجاح لنا جميعًا، لوضعنا أيدينا سُلّمًا حتى يطلع عليه المبدع، فلا قيمة للنجاح في مجتمع فاشل، وعندما نقتل الإبداع في المتميزين الذين يعيشون بيننا، فإننا نلغي كل فرصة لنا نحن أيضًا لنبدع.

إن الإبداع يحتاج إلى مجتمع يُعلي قدر المعرفة، لا يتردد أفراده في مشاركة اهتماماتهم ومعلوماتهم وخبراتهم في ما بينهم. وعندما يحدث ذلك، يصبح الابتكار ثقافة مجتمع، ويصير البحث عن المعلومة إحدى السمات الحضارية فيه.

لماذا نسمع أسماء مخترعين ومبتكرين في الغرب أكثر من الشرق؟ لأن النظام التعليمي والمنظومة المعرفية هناك قائمتان على الإبداع والابتكار اللذين أسست لهما ثقافة الاطلاع والشغف لمعرفة الجديد. أذكر أنني كلما مررتُ بحارس العمارة التي سكنت فيها بواشنطن وجدته يقرأ في مجلة ما، وعندما سألته ماذا يقرأ، قال: «أي شيء أقرؤه سيكون أفضل من النوم».

عندما سئل ستيف جوبز عن الابتكار قال: «يأتي الابتكار من الناس الذين يلتقون في الأروقة ويتصل بعضهم ببعض عند العاشرة والنصف ليلًا عارضين أفكارًا جديدة أو مكتشفين خطأً في طريقة التفكير بمسألة معينة. إنها لقاءات يدعو أحدهم لعقدها لمعرفة رأي الآخرين في الاكتشاف الذي توصل إليه، أو في الفكرة التي تراوده».

قرأتُ مرة على تويتر أن المجتمعات المتقدمة لا تحتقر أي معلومة، وإن كانت حول سلق البيض، وعندما بحثت في يوتيوب عن جملة «كيف تسلق بيضة» بالإنجليزية وجدت أكثر من 800,000 فيديو. عدتُ وبحثت بالعربية فلم أجد شيئًا. لا أريد من العرب أن يتعلموا سلق البيض، ولكنني أتمنى ألا يُحقّروا مَن أخذ على عاتقه تعليم الناس شيئًا ولو بسيطًا، فلقد اجتهد عندما تكاسل الآخرون.

نمت الحضارات على مرّ العصور ووصلت إلى أوجها عندما أتقن الإنسان الهندسة والفلسفة؛ فلقد كُتِبَ على أكاديمية أفلاطون قديمًا: «لا يدخل علينا إلا من درس الهندسة»، وربما لأن الهندسة تعد أساسًا لفهم الحياة بصورة أكثر تنظيمًا.

وقبل 1500 عام، قام إنسان الجزيرة العربية باختراع الأفلاج، وهي قنواتٌ مائية، مُصممة بطريقة هندسية بارعة، تستخدم في الري. إذ تتصل هذه القناة، المصنوعة من قبل الإنسان، بفجوة صخرية تنضح بالماء، وتمتد إلى أميال بين المزارع كنهر أمازون صغير، فتسقي النباتات الممتدة على جانبيها. ولقد أتقن العُمانيون، على وجه الخصوص، بناء الأفلاج باستخدام الطين قديمًا والإسمنت في وقتنا الحاضر، ولم يقتصر إبداعهم على النظام الهندسي لبنائها فقط، بل قاموا بوضع نظام دقيق لتقنين استخداماتها من حيث الكميات المسموح بها لكل مزرعة تبعًا لعدد الأشجار وموقع المزرعة من الفلج.

وما زال المزارعون الذين يستخدمون الأفلاج في قُرى الجزيرة العربية يفضلونها على باقي أنواع ري المزارع لأنها تشيع المحبة والتآلف بينهم؛ فمن يتقاسم الحياة يُدرك قيمتها.

الفلج نهرٌ صغير من صنع الإنسان، يحمل أمنياته بين جذوع النخيل، يغوص بين جذور الأشجار ليملأها أملًا بغد مُلوّن، ويكفي أن تجلس وتتأمله حتى تشعر بأن الحياة مصرّة على المضي قدمًا فالحياة لا تعود إلى الوراء، نحن فقط من نصرّ على العودة إلى الخلف، نمتطي حِمار الذكريات.

يُحكى أن مُزارعًا كان يملك بستانًا جميلًا تملؤه أشجار النخيل بشتى أنواعها، وتنتشر على بقعته أشجار الرمان والليمون. كان سعيدًا بمحصول بستانه الذي يفيض عن حاجته، خصوصًا أنه لم يكن ذا عائلة. أما جاره فكان بستانه ينتج محصولًا أقل، وكلما حاول أن يزيد عدد الأشجار فيه كانت تموت قبل أن تكبر. عندما سأل المختصين عن السبب قيل له إن أرضه تحتاج إلى ماء أكثر، إلا أنه لم يتجرأ على طلب ذلك من جاره، فكل واحد يأخذ من الفلج ماءً على قدر أشجاره.

وفي يوم من الأيام أصاب المنطقة جفاف بسبب قلة الأمطار، ما أدى إلى انخفاض منسوب المياه المتدفقة من منبع الفلج، فتحول اللون الأخضر في القرية إلى الأصفر تدريجيًّا، وبدأ الناس يعانون نقص الغذاء والمال. وفي إحدى الليالي كان

صاحب البستان مارًّا في الطريق إلى بيته، فسمع جاره يتحدث مع زوجته ويقول لها إنها قد تضطر إلى العمل حتى يستطيعا أن يوفرا طعامًا للأطفال، فلم يعد المحصول كافيًا. توقف برهة ثم انطلق إلى منطقة البساتين، وعندما اقترب من بستان جاره قام بتوسعة الفتحة التي ينهمر الماء من خلالها إليه وسدّ فتحة بستانه هو، ثم انصرف عائدًا إلى بيته. بعد أسابيع بدأت أشجار جاره تثمر، وبدأت أشجاره تذبل شيئًا فشيئًا. كان جاره سعيدًا بالتحول الذي طرأ على بستانه دون أن يكلف نفسه عناء معرفة السبب، وعندما جاء وقت المحصول كان سعيدًا بكسْبه، حتى إن زوجته لم تضطر إلى العمل.

بعد مدة افتقد جاره، فذهب وطرق باب بيته ولكنه لم يكن هناك. سأل عنه فقيل له إنه اضطر إلى الذهاب للعمل في المدينة لأن بستانه لم يدرّ محصولًا هذا العام. لم يقتنع بما سمع، وسأل أكثر فأخبره أحد المزارعين بما رآه من جاره في تلك الليلة. انطلق إلى المدينة بحثًا عن جاره فلم يجده. ظل يتردد على المدينة لعدة سنوات، وفي يوم ما وجده يعمل عتّالًا في الميناء، اقترب منه وحمل الكيس الذي على كان على ظهره ورماه على الأرض. عانقه. فهم صاحب البستان أن جاره علم بفعلته، فقال له:

ـ لا عليك يا صديقي، كُنتَ أحوج منّي إلى الماء، فأنت لديك أبناء، أما أنا فلا أعيل أحدًا.

ـ ستعود معي الآن إلى القرية، ومثلما تقاسمت معي حصتك من الماء فسوف أتقاسم معك حصتي من المحصول.

عاد الرجلان واتفقا على أن يدمجا أرضيهما في بستان واحد على أن يتقاسما المحصول بالتساوي. بعد سنوات فُتحت جميع البساتين بعضها على بعض وتقاسم أهلها المحصول والحب. تضاعفت رقعة الزراعة في القرية عشرات المرات، وصارت إحدى أكبر المناطق الزراعية في الجزيرة العربية. هذه القرية تُسمى اليوم عُمان.

ليتني أُشبهك يا روسّو

في تاريخ الأدب الإنساني، لا تكاد تخلو حقبة زمنية من صراعات بين الفلاسفة والأدباء الذين عاشوا فيها. وفي تاريخنا العربي، وخصوصًا في النصف الأول من القرن العشرين، امتلأت الساحة المصرية، التي كانت آنذاك البوابة الكبرى للثقافة العربية، بعشرات المعارك والمشاحنات التي دارت بين أعلام الأدب العربي.

وكان أكثر أولئك الأعلام شغبًا عباس العقاد وطه حسين، اللذين كانا شديدي النقد، لا تفوتهما قصيدة أو مقال أو قصة دون أن ينتقداها نقدًا أدبيًّا لاذعًا. وكانت خصومة العقّاد لأحمد شوقي هي الأكثر بروزًا، حيث ذكر بعض الباحثين أن العقاد كان يغار من شوقي، لا لكونه من الطبقة الأرستقراطية، ولكن لكونه أكثر بلاغة منه.

ولستُ هنا في معرض المقارنة بين الرجلين، فلقد أشبع النقّاد هذا الموضوع بحثًا وتفصيلًا، لكنني توقفتُ عند حادثة

جرت بعد وفاة شوقي بعشرين عامًا، ذكرها أنيس منصور، عندما هاجم العقاد شوقي في محاضرة بالجامعة الأمريكية، ولما سُئِل عن ذلك قال: «إنني أحسن حالًا من الذين يُدافعون عن شوقي، هم يرونه قد مات، وأنا أراه حيًّا». فوجدتُ في هذه الكلمات كثيرًا من التبجيل لشوقي، واعترافًا «فلسفيًّا» غير مباشر بمكانته الأدبية.

وعلى الرغم من أن سجالات أدباء تلك المرحلة لم تخلُ من بعض الشتائم، فإن الحصيلة النهائية كانت كتابات عظيمة لأدباء عِظام، علّمونا في اختلافهم أكثر مما علمونا في اتفاقهم.

إن النّقد غير المبني على أسس علمية، أي المبني على نزعات شخصية، له عدة أسباب، أهمها الغيرة أو الجهل، وفي حال اجتمعا، نتجت ظاهرة التعصب الفكري التي نراها كثيرًا في أيامنا هذه. فالعارِف (من المعرفة) تدفعه الغيرة إلى العمل أكثر، وإن انشغل بعيوب خصومه بعض الوقت، إلا أنه يستمر في سعي دؤوب للتفوق عليه لا لسحقه. أما الجاهل، فإنه يندفع إلى الشتم والتقليل من شأن الخصم، ورميه بما ليس فيه، والخوض في شخص المنتَقَد لا في فكره.

يقول الكاتب الليبي الراحل الصادق النيهوم في هذا الشأن: «التعصب ظاهرة من ظواهر الثقافة المتخلفة، إنه نوع من الصراع الفكري الذي تعيشه تلك الثقافة وتعتمد عليه للدفاع عن نفسها

ضد أي تيار من الخارج. فالعقل غير المثقف لا يحتمل النقاش، لأنه عاجز عن أن يثق في إمكانياته المحدودة، والحل المتوقع أن يغمض عينيه ويصدمك بعظام جبهته مثل كبش مدرب على النطاح».

وهذا ما يحصل لكثير من المثقفين اليوم، فلا يكاد يبرز نجمٌ جديد إلا سعى الناس لتحطيمه وإطفاء نوره، وإن كانوا يتابعونه على شاشات التلفاز، ويتفاعلون معه في شبكات التواصل الاجتماعي، فما إن يخطئ خطأً بسيطًا حتى يصير عدوّ الشعب الأول.

يظن البعض أن المثقف نبيّ معصوم؛ يمارس كل ما يدعو إليه، وهذا خطأ فادح. فبعض المثقفين يكتبون ما يريدون أن يكونوا عليه، ويدعون لأشياء ربما عجزوا هم عن تحقيقها، ولكن ذلك لم يمنعهم من الدعوة إليها. هذا ليس تناقضًا مع الآية الكريمة: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ولكنه أقرب إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. ومن سذاجة المجتمع أن يُطالب أو يحلم بمثقفين تخلو سجلاتهم من أخطاء وتجاوزات. قرأتُ مرة قولًا ولا أدري لمن هو ولكنه أعجبني: «من منكم لم يخطئ؟ فليرفع يده حتى ننصبه نبيًّا علينا».

ومن أجمل خصومات التاريخ تلك التي دارت بين فيلسوفي عصر التنوير في فرنسا، فولتير وجان جاك روسو. حيث كان

الأول أرستقراطيًّا محظيًّا لدى السلطة على رغم انتقاده لها، فيما كان الآخر يساريًّا فقيرًا. وعندما برز روسو وأعجب الناس به، غار منه فولتير وأرسل إليه رسالة يقول فيها: «لقد تلقيت كتابك الجديد يا سيدي الذي تهاجم فيه المدنية والعلوم والآداب، أشكرك على إرساله. لم يقم أحد بمثل هذه المحاولة التي تحاول فيها تحويلنا إلى وحوش وحيوانات». لكنه كتب له أيضًا: «أنا لا أتفق معك في كلمة واحدة مما قلتَ، ولكني سأدافع عن حقك في الكلام وحرية التعبير عن أفكارك حتى الموت». وبعد أن أثقل عليه في مرات أخرى، كتب إليه روسو: «أنا باختصار أكرهك، لأنك هكذا شئت، ولكن أكرهك بمشاعر إنسان ما زال في وسعه أن يحبك لو كنتَ قد رغبت في حبي. ولم يبق من جميع المشاعر التي امتلأ بها قلبي نحوك سوى الإعجاب بعبقريتك الرائعة وحبي لكتاباتك».

وعندما تقدم به العمر وضع فولتير كتابًا بقلم مجهول، سمّاه «عواطف المواطنين» أهان فيه روسو إهانات قبيحة واتهمه في عِرضه، فما كان من روسو إلا أن كتب إليه: «حين يحضرني الموت، أؤثر أن أكون قد ارتكبتُ ما يتهمني به المؤلف، وأن يكون بي ما ذكر من عيوب، على أن أكون كاتبًا لهذا الكتاب». عندما يشتمك الناس، فلا يهم أن تدافع عن نفسك، بل أن تظل مؤمنًا بها.

تقترب المراكب المحملة بالأسماك ببطء من الميناء الصغير وفي انتظارهم مجموعة من الوسطاء الواقفين على حافة الرصيف، وما إن تتوقف حتى يبدأ المزاد العلني. يتولى الوسطاء الترويج لبضاعة القوارب الواقفة أمامهم، بينما يجلس الصيادون في قواربهم دون أن يكون لهم القرار في سعر السمك المبيع. البعض يبيع كل الحمولة الموجودة في المركب بسعر الجملة، والبعض يُفضّل بيع الأسماك في مجموعات حسب الأنواع، وما زال الصيادون ينظرون دون أن يكون لهم أي قرار في الأسعار أو طريقة البيع. يزداد ازدحام المكان بالناس، وتفوح رائحة الأسماك الطازجة كلما حُمِلَت كمية منها من المراكب ووضعت على الرصيف.

زرتُ مرة أحد تلك الموانئ الصغيرة المنتشرة على الساحل الشرقي لدولة الإمارات. كان معظم الوسطاء من الصيادين المتقاعدين الذين لا يملكون دخلًا غير المعونات الاجتماعية التي تصرفها لهم الدولة، وكانت وظيفة الوسيط هي مصدر رزقهم

الرئيس. الغريب في الأمر أن بعضهم قد لا تربطه أي علاقة بالصياد الذي يبيع له أسماكه، لكنه عرفٌ غير مكتوب، يلتزم فيه الصياد بالصيد فقط، ثم يقوم الوسطاء ببيع الأسماك لأصحاب المحال ـ تُسمّى دكّة ـ التي توجد كلها في الميناء نفسه. المفاجأة الحقيقية هي أن الدّكك تطل على الرصيف البحري مباشرة، لا يفصل بينهما سوى بضعة أمتار، لكن أصحابها لا يتجاوزون الوسيط ويشترون الأسماك من الصيادين مباشرة. وما إن يبع الوسيط الصيد على صاحب الدكة، حتى يتوجه المتسوقون إليه، إذ لا يسمح لهم بالشراء من الوسيط أو من الصياد مباشرة. توجهتُ إلى بعض الصيادين وحاولت أن أقنعهم ببيعي صيدهم كله فرفضوا. ثم نهاني أحدهم قائلًا: «انتظر حتى يأتيك رزقك». ثم أشار إليّ بالانتظار عند أصحاب الدكك.

حتى يأتيني رزقي! هل يقصد أنه سيعطيني بعض الأسماك لاحقًا دون مقابل؟ هذا ما دار في نفسي. وكان رجل مُسنّ جالسًا غير بعيد يُراقب محاولاتي اليائسة، ولم أكن أفعل ذلك لشراء السمك، لكنني أردتُ معرفة سبب رفضهم جميعًا بيعي أي شيء قبل أن تصل البضاعة إلى أصحاب الدكك. اقترب مني وقال:

ـ يبدو أنك غريب؟

ـ نعم. أنا من مدينة أخرى.

ابتسم وعرض علي أن أحتسي القهوة معه على الكراسي الخشبية المُتقاعدة في طرف الميناء. مشينا حتى اقتربنا من مكان الجلوس، فأسرع قليلًا وأمسك دلة القهوة وسكب قليلًا منها في الفنجان، ثم أصرّ على أن أشرب ثلاثة فناجين، وبعد أن انتهيت قال:

ـ ألم تسمع بالمثل الذي يقول «القِدْرُ لا تَرْتَكِزْ إلا على ثلاث؟».

أي ثلاثة أحجار. ضحكنا وجلسنا، فأكمل:

ـ اسمع يا بني. في قريتنا هذه، كما هو الحال في باقي القرى الساحلية الصغيرة، لا توجد مصادر دخل كثيرة، البحر هو المصدر الرئيس للرزق؛ ولذلك فإن حياتنا هنا قائمة على ما يجود به علينا كل يوم. قد تستغرب وجود وسطاء لبيع الأسماك، حيث يمكن للصيادين أن يبيعوا أسماكهم على أصحاب الدكك مباشرة.. بل يمكن لكل صياد أن يبني دكّة صغيرة ويبيع أسماكه بنفسه، لكن ذلك لن يكون رزقه.

ـ وكيف يعرف إن كان رزقه أم لا؟

ـ رزقك هو ما يكفي حاجتك، وكل ما فاض عنها هو رزق غيرك. قد تكون قناعاتكم في المدينة مختلفة، لكننا هكذا نفكّر هنا. هل ترى هؤلاء الوسطاء، لقد كان بعضهم صيادين يومًا ما، لكنهم اليوم لا يحتملون قسوة البحر، ويحتاجون إلى إعالة

أسرهم، والنسبة البسيطة التي يأخذونها من بيع الأسماك كل صباح هي التي تعينهم على ذلك. قد يحصل الصياد على ربح إضافي إذا باع أسماكه دون وسيط، ولكن ما قيمة المال إن لم تُسْعِد به من حولك؟ وكذلك أصحاب الدكك، تصور لو أنهم كانوا يتنافسون مع شركات الأسماك التي تأتي من المدن الكبيرة على شراء الأسماك التي يأتي بها الصيادون كل يوم! لن يستطيعوا أن يصمدوا وسيقفلون دكاكينهم. ولذلك يحرص الصياد على ألا يبيع إلا للوسيط، ويحرص الوسيط على ألا يبيع إلا لأصحاب الدكك الذين يبيعون لبقية الناس بعد ذلك. لكل شخص نصيبه من الحياة، المهم أن يعرف هو ذلك.

ـ ولكن ألا يجعل ذلك من أصحاب الدكاكين الأكثر غنى في سلسلة البيع هذه؟

ـ كلا، فلا شيء يضمن لهم بيع كل الكميات التي يشترونها، ويضطرون أحيانًا إلى التخلص منها وتحمل الخسارة. هكذا هي الحياة، لكل إنسان نصيبه من الربح والخسارة، من الفرحة والألم، ومن الضحك والبكاء. لا تهم كمية الخير والشر في حياتنا، الأهم هو قناعة الإنسان بما يحصل عليه منهما. السعادة الدائمة تشبه الحزن الدائم، يخسران تأثيرهما إذا طال مكوثهما.

اقترب رجل وهو يحمل صندوقًا صغيرًا به أسماك وأعطاه

للعجوز. حمله العجوز وهمّ بالانصراف.. سألته: «وماذا تفعل أنت هنا؟».

ردّ ضاحكًا: «أنا الذي أنظّف الرصيف.. ألم أقل لك إن لكل شخص نصيبه من الحياة».

اليوم الأول

أول يوم في المدرسة هو أسوأ يومٍ في حياتي، وأظن أنه كذلك في حياة أغلبية من يقرؤون هذا الموضوع الآن.. أشعر بذلك. فالمفاجأة النفسية والذهنية عظيمة: وجوه غريبة، ممرات مُظلمة، فصول باردة، مكان جديد تتلاطم فيه مشاعرنا كالأمواج العاتية في بحر الشمال. أما أول يومٍ في الإجازة، فهو أسعد يومٍ في حياتنا جميعًا؛ يبدأ باللعب، وينتهي بوجبة دسمة، ثم نوم عميق، وأحلام سعيدة خالية من أي خطط، حتى لأظن أحيانًا أن أعمارنا الحقيقية هي التي قضيناها في الإجازات.

لا أدري لماذا، في بعض الأحيان، يحب الإنسان البدايات؟ ربما لأنها أكثر وضوحًا من النهايات. ففي ليلة العام الجديد نعود كلنا أطفالًا مرة أخرى، نقلّب قنوات التلفاز لنشاهد الألعاب النارية، نأكل الحلويات بشراهة، نضحك بصخب، ونعشق كل شيء. وما إن تشرق شمس اليوم التالي حتى نصبح كالهواتف المحمولة، نحتاج إلى ضغط زر إعادة التشغيل كي نتخلص من

تشنجات العام الماضي، ونقبل على العام الجديد بسهولة وسرعة فائقة.

توقفتُ منذ سنوات عن التخطيط المُفَصّل والدقيق لحياتي، وعلى الرغم من كل الدورات الإدارية التي حضرتها، فإنني مقتنعٌ اليوم بأننا كلما خططنا لحياتنا كثيرًا؛ عبثنا في براءتها، وزدناها فوضى. قبل تسع سنوات قررتُ أن أكتب جملة واحدة في أول يوم من العام الجديد لأحدّد هويته بالنسبة إليّ، ومن ثم أترك لنفسي الخيار في الطريقة التي سأطبق بها ذلك الهدف. أذكر أنني كتبت في بداية عام 2005 «سنة الفلسفة». وعكفتُ طوال العام على قراءة كتب الفلسفة ابتداءً من «قصة الفلسفة» لويل ديورانت، وانتهاءً بكتاب الفوضوي المجنون نيتشه «هذا هو الإنسان»، الذي بعثرني كثيرًا حتى اضطررتُ إلى شتمه (أي نيتشه) على غرار «من حَبّك سَبّك».

وفي عام 2010 كان شعاري «سنة الصحة» فالتزمتُ ببرنامج رياضي وغذائي لعام كامل؛ واستعدتُ ـ بفضل الله تعالى ـ صحتي وشيئًا من لياقتي، وكدتُ أقسم ألا أدع مجالًا للكسل ليُباغتني، أو للشحوم لتزاحمني. اكتشفتُ لاحقًا أنني صرتُ أكثر انضباطًا في حياتي، حيث علّمني مُدربي أن تدريب الذهن أهم من تدريب البدن.

وفي بداية عام 2011 كتبتُ «سنة الكتابة» واستطعتُ ـ بفضل

الله تعالى ـ أن أكتب عدة كتب ومسوّدات، نشرتُ ثلاثة منها، والرابع هو هذا الذي بين يديك، تحول أخيرًا من مسوّدة إلى كتاب. وقرأتُ عدة كتب حول فنون الكتابة الأدبية، وجددتُ معلوماتي في النحو والبلاغة.

قال لي صديق قبل أيامٍ إنه يريد أن يكتب مقالًا عن التخطيط للحياة ليساعد الناس في وضع أهداف للعام الجديد، ولكنه كان مترددًا لأنه، كما قال، ليس خبيرًا في هذا المجال ويخشى أن يُتّهم بأنه «يتفلسف». قلتُ له إنه قد لا يكون خبيرًا، لكنه إنسان له تجاربه، خاض نجاحاتٍ كثيرة، وأخفق مرات كثيرة، ومن حقه أن يروي قصته للآخرين، فلكل إنسان قصة تستحق أن تُروى، ومن حق كل إنسان أن يتفلسف.

لا أستسيغ من يضع حروفًا كثيرة أمام اسمه (أ. د. م.) وأتضايق عندما يناديني أحدهم «أستاذ ياسر» فالنخبوية قد ولى زمنها، وكل من يظن أنه مؤهل أكثر من الآخرين فليستمع إلى الفتيات والفتيان الذين يجلسون على مقاعد الدراسة في الجامعات، وسيعلم أنه في حاجة إلى وضع حرف (ط.) أمام اسمه.

أعلمُ أنني تشعبتُ ودخلتُ في موضوع آخر، لكنني أردتُ أن أكتب لكم اليوم مثلما أفكّر، لا كما أريد أن أفكر.. أكتبُ الآن وفي داخلي فتى اليوم الأول، ذلك الذي لم يفارقني يومًا؛

مُشتَّتٌ إلا أنني أحبّ شتاته الذي يشبه تبعثر أوراق الخريف على أرضية صخرية قديمة.

أعلمُ أنكم تتساءلون الآن: وماذا كتبتَ للسنة الجديدة؟ لا شيء، لكنني أفكّر في أن أكتب «سنة الإعلام»، حيث أعكف حاليًا على الإعداد لمشروعين إعلاميين، على الرغم من أنني لا أحب الأضواء، وأتمنى أحيانًا أن أعيش في كوخ خشبي صغير مُطلٍّ على بحيرة إنترلاكن بسويسرا، بشرط أن يكون به إنترنت بسرعة عالية، وآلة نِسْبريسو للقهوة، وزوجتي هَيَا التي لا أدري لماذا أعتقد جازمًا أنها السبب في كوني كاتبًا.

قبل أن يبدأ العام الجديد قولوا للتخطيط: «ارحل بقى» ثم اكتبوا شيئًا بسيطًا، وانشروا الحب، واستمتعوا بالحياة؛ فالسعادة أغلى من أن نؤجلها ليوم آخر.

«لا يفوز إلا البعير الأصيل».. هذا ما كان يُكرّره صديقه كلما رآه يدرب بعيره. يخرج به بعد صلاة الفجر مباشرة؛ يقطع عشرة كيلومترات جريًا، وعليه أن يطويها في أقل من عشر دقائق.

«لن يفوز لأنه عديم النسب».. تزعجه هذه الكلمات عندما تصدر من أصدقائه. إذ يعتقد العرب أن البعير الأصيل الذي ينحدر من سلالة ذات سجل حافلٍ بالأبطال في سباقات الهِجن هو فقط الذي يستحق يفوز.

ويُعتبر سباق الهجن إحدى الرياضات المنتشرة في منطقة الجزيرة العربية منذ زمنٍ بعيدٍ سبق ظهور الإسلام فيها، حيث كانت القبائل، وما زال بعضها، يتفاخر بأنواع جمالها وأصولها. ويحرص مقتنو الهجن الأصيلة على المشاركة في تلك السباقات كلما حل موسم الشتاء؛ فإلى جانب الجوائز المالية التي أصبحت مصدر دخلٍ للمتسابقين، فإن الفوز في السباق يعد شرفًا لصاحب الجمل، وأحيانًا، للقبيلة الفائزة.

يخرج مع بلال مرتين في اليوم، على عكس المدربين الآخرين؛ حيث جرت العادة على تدريب الجِمال المُتسابقة مرة واحدة في النهار؛ لكنه كان مُصرًّا على الفوز.

«لن يفوز لأنه ضئيل». . يهزأ به أحدهم عندما يمر بجانبه وقت التدريب المسائي. كان بلال صغير البنية، قصير السيقان والرقبة، ما يجعل حظه في الفوز محدودًا، لكن إحدى مزاياه أنه لا يخاف الجِمال الأخرى. في إحدى الليالي جلس مدربه على كثيبٍ رملي وظل محدقًا في بعيره الذي حدّق فيه أيضًا. قال للجمل: «تعلمُ أن غدًا فرصتنا الأولى والأخيرة» استمر بلال محدقًا فيه وكأنه يقول «أعلم».

«إنها لسخافة كبرى أن تشترك بهذا البعير الهزيل وتضيع سمعتك كمدرّبٍ محترف» هكذا كان يقول له أبوه. لكنه لم يكن ينصت له. . «هناك شيء مختلف في هذا البعير» هذا ما كان يدور في نفسه. يرى إصراره على الاستيقاظ للتدريب قبل الأوان، ويستغرب عندما يصرّ على الجري أكثر من عشرة كيلومترات. كانت جدته تقول: «إن من يخرج من بيته قبل ضوء الشمس لا يعود خالي اليدين في المساء».

«ليس مهمًّا أن نفوز في السباق، والأهم أن نكون مع المتسابقين الكبار في الحلبة نفسها حتى نكسر حاجز الخوف» هذا ما قاله المدرب لبلال وهما ينتظران إشارة انطلاق السباق. .

مسح على عنقه قبل أن تُفتح الأبواب وهمس في أذنه: «كلما اقترب أحدنا من الفوز صار أقل خوفًا من الخسارة».

انطلقت الجمال وكأنها صواريخ سقطت من طائرات حربية، وانطلق بلال كرصاصة بندقية تشقّ طريقها بين القنابل. تقترب الجمال بعضها من بعض في المقدمة فتتطاير الأتربة في وجه الجمال التي تلهث في المؤخرة، كان بلال يلهث بينها. تدفع الجمال بجسدها الكبير بلال حتى تكاد تسحقه بينها، لكنه كان يزيد سرعته فينزلق من كمّاشاتها. يوجد بجانب ميدان السباق طريق مُعبّد يستخدمه مُلّاك الجمال بسياراتهم ليُشجّعوا المدربين على الإسراع أكثر. ظل بلال ومدربه بلا سيارة تُشجّعهما.. كانت أحلامهما فقط هي التي تفعل ذلك.

أخذ المدربون يضربون جمالهم بعصي قاسية حتى تسرع العدْوَ، وحده مدرب بلال كان يمتطيه دون عصا؛ فالرغبة الجامحة في الفوز كانت له كعصا موسى، تشقّ الطريق أمامه دون تردد.

استطاع أن ينسلّ بين باقي الجِمال. بدَت جميعها متعبة مع اقترابها من خط النهاية. جملٌ أصيل فقط استطاع أن يحتفظ برباطة جأشه وتقدم الجميع. عندما شعر بأن بلال قد اقترب منه مال بجسده عليه فلطمه في وجهه وأثار غُبارًا أمامه. كاد بلال يُبطئ سرعته. لم يعد يرى جيدًا. اقترب مدربه من أذنه وهمس

فيها: «تذكّر أننا تدربنا بالليل ولم تكن في حاجة إلى رؤية أي شيء؛ كل ما نحتاج إلى رؤيته الآن هو الفائز الذي في داخلك».

تسارعت خطواته القصيرة حتى اقترب من الجمل الأصيل أمامه، تقدم عليه قليلًا حتى أوشك أن يبلغ خط النهاية.. اقترب منه الجمل الكبير ومد رقبته الطويلة ليقطع بها خط النهاية.. مَدّ بلال رقبته القصيرة..

بعد سنة، أصبحت سباقات الهجن مليئة بالجمال التي لا نسب لها. انتسبت جميعًا إلى بلال. وصارت الجمال الأصيلة تتدرّب مرتين في اليوم، تمامًا مثلما كان يفعل بلال.

قرأتُ هذا السؤال الفلسفي على تويتر: «إلى أي الضفتين ينتمي الجسر؟ أم إنه ينتمي إلى نفسه؟». كنتُ حينها أقود سيارتي على أحد الجسور في دبي، توقفتُ على كتف الطريق وحدقتُ من فوق الجسر لبضع دقائق، فأدركتُ أنه ينتمي إلى الأشخاص الذين يعبرونه؛ فالهدف من وجوده هو إيصالهم بين الضفتين، ولولاهم ما كانت له حاجة. يُقال إن الإنسان ينتمي إلى من يحتاج إليهم، لكنه أحيانًا ينتمي إلى من يحتاجون إليه أكثر؛ كالأم التي تعطف على أطفالها لأنها تحتاج إلى ذلك العطف أكثر منهم.

عندما تعبرنا الأشياء فإننا نشعر بخفة كبيرة، لأنها تحمل معها شيئًا من الثقل الذي يضغط على كواهلنا، ولذلك فإنها تمنحنا عمرًا أطول، أو ربما أقل شقاءً.

بعض الأشياء الباقية ثقيلة، ولذلك يشعر الإنسان بالراحة عندما يسافر، ولا بد من رحيل من نحب حتى نتعلم الاشتياق إليهم. الاشتياق غريزة وجدانية، لا تثقل إلا عندما تتراكم، مثل

القطن، فعلى رغم خفته لا يشكل ثقلًا إلا بكميات كبيرة. أما الأشياء الباقية فإنها تشبه الحديد، مهم وحيوي، لكن كمية قليلة منه قد تقصم ظهورنا.

النجاح يشبه الجسر، معلق بين ضفتين، يبدو المنظر من فوقه رائعًا، لكن إطالة الوقوف عليه تحيل الأشياء الجميلة إلى عادية؛ ولذلك فإن الإنسان في بحث دؤوب عن جسور أخرى، ليس بالضرورة أن تطل على مناظر جميلة، بل يكفي أن تمنحه بهجة الوقوف والتأمّل. الوقوف بين ضفتين هو العمل الأقصر وقتًا في حياتك، والأكثر تأثيرًا فيها.

الجسور المطلة على الأفق البعيد أجمل الجسور؛ فالأماكن الخالية تملؤنا كثيرًا، إنها الأشياء الوحيدة التي لا تعبرنا فقط، بل تعيد ترتيب ما في داخلنا وتشجعنا على الاستمرار. لذلك لا يكمن سحر الصحراء في الواحات التي تسكنها، بل في قدرتها على دفعنا للرحيل.

الحياة الحقيقية لا توجد على أرفف المحال التجارية؛ ولهذا فإن أعذب أنواع البهجة هي التي تعبرنا دون صخب، دون بضائع، دون أصوات الآلات الحاسبة وأجهزة بطاقات الائتمان في «البوتيكات» الفخمة. تصبح الحياة جميلة عندما تصير توقعاتنا منها بسيطة وآمالنا بها عظيمة، عندها، تصير الحياة طريقًا ريفيًّا خاليًا من الازدحام.

جلستُ مرة مع مجموعة من السياسيين ومتخذي القرار حول العالم، كانوا يتحدثون عن مصائر شعوب الأرض ويُكررون ما يقال في وسائل الإعلام، وعندما سألني أحدهم عن رأيي قلت: «هل يمكن لأحدكم أن يقول هذا الكلام في بيته وهو جالس على العشاء مع أسرته؟»، فردَّ نافيًا، سألته عن السبب، فقال: «لأن ذلك لا يعنيهم»، فقلت له: «بالضبط، فالأشياء التي تعنينا هي التي نقولها ونحن نرتدي ملابس النوم».

الأشياء الخالدة ليست تلك التي تبقى أبدًا، ولكنها التي لا تُنسى أبدًا. بعض الأشياء الجميلة تخنقنا عندما تطول، كالضحك، الذي يكمن سحره عندما يأتي فجأة. الضحك هو استراحة قصيرة بين حياتين.

قال لي طبيب مرة إن بعض الناس يعرفون ما يناسبهم من طعام وما يسبب لهم حساسية أو ألمًا في المعدة؛ لأنهم يراقبون حياتهم جيدًا، ولا يفوتهم الانتباه إلى تأثير الأشياء فيهم. ظننتُ أنني استوعبت حديثه، ولكنني لم أفهمه إلا عندما أصابتني حساسيةٌ جلدية عجزتُ عن معالجتها برغم كل الأدوية التي استخدمتها. تذكرت كلامه وبدأت أراقب طعامي وأسأل عن نوع مسحوق الغسيل الذي نستخدمه في البيت؛ حتى بدأتُ أتعرف إلى الحياة المنزلية حولي بتفاصيلها التي كنتُ أظنها يومًا غير مهمة.

وقرأتُ حينها أن المتصوفة شغوفين بقراءة الإشارات من حولهم، ولم أكن أعلم ماذا تعني الإشارات، هل هي برق في السماء، أم صوت داخلي، أم سقوط مزهرية عن الرف كلما فكرت في أمر ما! لم تكن أيًّا من ذلك، بل هي الأشياء التي تشتت انتباهنا عندما يشغلنا القلق من المستقبل، فتعيدنا إلى دائرة الحاضر، وإلى الانغماس في اللحظة الآنية بمصاعبها ومكافآتها؛ كضحكة طفلتي، وكاختيار مسحوق غسيل جديد، وكالحساسية الجلدية التي ألمّت بي. كانت تلك إشارة قادتني إلى التواصل مع أسرتي أكثر، وخصوصًا أمي التي زرتها لأخبرها بما ألمّ بي فأعدت لي دواء شعبيًّا. لم تكن مكافأتي في الدواء، ولكن في الحديث الجميل الذي دار بيننا في تلك الليلة. لقد كان ذلك الحديث بمثابة عودتي إلى مسقط رأسي (حضن أمي) حيث شعرتُ، ولأول مرة منذ سنوات، بأنني في أمان تام.

لا أدري لماذا كان حديث أمي في ذلك المساء حافزًا لكي أعود للكتابة الأدبية، بعد انسدادٍ فكريٍّ وشعوريٍّ، لكنني أدركتُ الآن أن الأشياء التي تعبرنا هي اللحظات الأجمل في حياتنا.

يستلقون على رمال البحر دون أن يُلقوا بالًا لهدير الأمواج وهي تتكسر بالقرب منهم، وكأنها تريد مشاركتهم اللعب. لا يأبهون لحرارة الرمال من تحتهم، فكل تركيزهم منصب الآن على الكرات الزجاجية الصغيرة التي تشبه عيون القطط. لم يناموا في الليلة الماضية، كانوا يتدربون في بيوتهم على دحرجة كراتهم الصغيرة بإتقان فائق ليصيبوا بها كرات الآخرين. لكن التدريب الجسدي لا يكفي ليتقن أحدنا مهارة ما، فعليه أن يدرّب ذهنه أيضًا ليكون حاضرًا معه يوم المنافسة. هكذا كانت تقول إحدى عجائز القرية. كانت تراقبهم طوال اليوم من بيتها الصغير المُرتاح على رمال الشاطئ.

يضع أحد الأطفال «تيلته»[1] أمامه، يجلس خلفها على ركبتيه، ثم يهبط برأسه حتى تكون أمام إحدى عينيه. «لا يمكنك

(1) التيلة: كرة زجاجية صغيرة كان يلعب بها الأطفال على ساحل الخليج العربي قديمًا.

أن تقف أمام أحدهم وتدعي أنك ترى العالم مثله» هذا ما كانت تقوله العجوز للأطفال قبل بدء المنافسة.

تكمن مهمة كل طفل في رمي تيلته على الرمال لتتدحرج وتصيب تِيَل الآخرين، وكل تيلة تصطدم بها تصبح من نصيبه. هذا هو قانون اللعبة، ومن يكسب أكبر عدد من التيل يَفُز. لا يهتم الأطفال كثيرًا بعدد التيل التي يكسبونها، وما يهمهم حقًّا هو أن يعودوا إلى بيوتهم بأجمل قطعة: التيلة الكبيرة التي تُسمّى «الكَسّابة».

التيلة للطفل تشبه أحلامه، شفافة، تتدحرج، يرمي بها بعيدًا دون أن يخشى الخطأ. كان الأطفال حذرين عندما يحملونها في جيوبهم، وعندما يكسب أحدهم تيلة صديقه فإنه لا يضعها في الجيب نفسه الذي يضع فيه تيلته حتى لا تختلط أحلامه بأحلام الآخرين وتضيع.. هذا ما كانت تنصحهم به العجوز.

عندما يفوز أحد الأطفال بتيلة أحد زملائه فإنه يعود في اليوم الثاني ويعيدها إليه، لأن من يستولي على أحلام الآخرين لن يجد من يحتفي معه بأحلامه.. ولا قيمة للنجاح في مجتمع فاشل.

يضرب أحد الأطفال تيلته بسبابته فتتدحرج غير آبهة لوعورة الرمال والحصى أو لصراخ الأمواج، فعندما يسعى أحدنا في تحقيق حلمه فإنه لا يسمع إلا الأصوات القادمة من أمامه، وكل

الصخب حوله يتحول إلى سكون كوني عميق، كقاع بئر راكدة.

تنسابُ التيلة على الرمل بنعومة كحيّة تعلم أن الفوز ليس في سرعة الوصول، بل في الوصول في الوقت المناسب. تمر على التيلة الأولى فلا تصطدم بها، يغلق الفتى عينيه متمنيًا أن تصطدم بالتيلة الثانية، إلا أن تيلته تخطئ تلك أيضًا. تلكزه العجوز بطرف عصاها المهترئة وتقول:

افتح عينيكَ ولا تخف.. عندما تنطلق كُرَتك فإنها ليست في يديك، إنها في يد الله الآن. مهمتك تكمن في التدرب على رمي التيلة.. لأن الرمي فقط ما تستطيع التحكم به. وما إن تُفارق التيلة يدك فإنها تكون خارج سيطرتك، هنا تنتهي مهمتك. عليك أن تؤمن بذلك حتى تستريح، وعليك أن تعرف أن لكل إنسان مهمة في هذه الحياة، وإذا حاول أن يقوم بمهمة غيره فإنه سيتعب كثيرًا وسيفشل حتمًا. الفوز ليس ملكًا للأفضل، بل ملكٌ لمن يُحاول. افتح عينيكَ الآن وابتسم لأن الله قد منحك الفرصة لكي تدحرج تيلتك، فكثير منا لا يملكون تيلة بعد. وهناك من يملكون تيلًا ولكنهم لا يعرفون كيف يرمونها، وقد لا يجدون وقتًا للعب مثلنا.. افتح عينيكَ وتحدث مع تيلتك، قل لها إنك راضٍ بما ستكسبه اليوم، لأن الهدف من اللعب هو أن نتقاسم السعادة مع الآخرين، لا أن ننتصر عليهم».

فتح الفتى عينيه، ابتسم عندما رأى تيلته قد أخطأت كل

النيل لتتجه إلى الكسّابة ذات الألوان الزاهية. لم يصدق حتى اصطدمت تيلته الصغيرة بذلك الكوكب العملاق وحرّكته من مكانه. «لا يهم حجم حلمك الذي تسعى وراءه، الأهم هو حجم الرغبة التي تدفعك إليه».. تذكّر كلام العجوز.

قفز عاليًا وهو يصرخ فرحًا. قفز باقي الأطفال معه لأن تلك كانت المرة الأولى التي يفوز فيها أحدهم بالكسابة، التي كانت ملكًا للعجوز.

ضحكت العجوز وقالت:

«عندما لا تتحقق أحلامك فاعلم أنها لا تُناسبك».

عندما كنتُ موظفًا حكوميًّا طُلِبَ مني مرة أن أقدم عرضًا لمجموعة من الزوار عن خدمات المؤسسة التي كنت أعمل بها، ولقد كنتُ حريصًا على أن يكون العرض مختلفًا وجميلًا. لكنني كنتُ مرتبكًا وخائفًا ألا يكون كما أتمنى، وعندما أدرك مديري ما بي قال لي إن كل ما علي فعله هو أن أروي قصّة!

تخيلتُ المكان الذي كنتُ أعمل فيه واحةً صغيرة، والموظفين قافلةً تسير في الصحراء، وبعد أن أتعبها المسير ووصلت إلى الواحة، قررت أن تستقر فيها وتبني مدينة. واسترسلتُ في سرد قصة المكان وكيف استطعنا أن نجعل منه مكانًا صالحًا للعيش؛ ثم بدأنا نقدم خدماتنا للقوافل المارة (وفي هذه الحالة الزوّار والمراجعين). وبعد أن انتهى العرض وانصرف الحضور فرحين، فهمتُ ما قصده مديري؛ فالناس تُحب القصص، ولو كانت سخيفة، أكثر من الأرقام والحقائق، لأننا عندما نرويها نكون أقرب شيء إلى حقيقتنا.

فالحكايات لغة عالمية، تتخطى الحواجز الثقافية، تَرْتُق فجوة العُمر، وتتجاوز الحدود السياسية. إنها الجسور التي تصلنا بالتاريخ، وذاكرتنا هي الأعمدة التي تحملها عبر الزمن. عندما نروي نسافر مع السنين، دون أمتعة أو خطط، دون وجهة أو مواعيد للإقلاع والهبوط، ودون الحاجة إلى مسكن لأننا حينها نسكن أحداق من يستمعون إلينا، ثم لا نخشى أن نهوي مع دمعاتهم لأنها ستعود بنا إلى الأرض، منبع كل الحكايات الصادقة.

عندما نروي قصص الآخرين فإننا نحفر أسماءهم على جدار الزمن، ونحجز لهم مكانًا في مساكن الذاكرة. لكنني أتساءل دائمًا: لماذا يريد الإنسان أن يتذكره الآخرون؟ أليستمرّ سَرْدُ القصص للأجيال القادمة؟!

ما أجمل حياة الإنسان عندما تصبح قصة تُروى! هناك من يقرأ قصص البطولة، وهناك من يرويها، وهناك من يصنعها. الأول يحب نفسه، والثاني يحب الآخرين، والثالث هو مصدر ذلك الحب.

الحكايات امتداد للأرواح، تنشر عبقها، لكنها لا تُكفكِف دمعها. إنها تشبه يد الأم التي تمسح على صدور أطفالها عندما يبكون، لا ليتوقف الألم، ولكن حتى يستطيعوا تحمله.

اسأل نفسك الآن: متى كانت آخر مرة رويتَ فيها قصة حتى نهايتها دون أن يقاطعك أحد؟ هل صارت الحكايات أقل قيمة؟ أم لأننا صرنا أكثر معرفة بما يدور حولنا من علوم وتكنولوجيا وأخبار صار السرد فعلًا رجعيًّا؟! لماذا توقفنا عن الاستماع للقصص والاستمتاع بها؟ هل ضاق بنا الوقت إلى هذا الحد؟ أم لأننا نريد أن نقول أكثر مما نسمع؟ ونفعل أكثر مما ننجز؟

هل ما زالت قصص البطولة والحب والمعاناة تحرك شيئًا في داخلنا؟ لماذا يقول بعضهم: «إن الحب الصادق لا وجود له!». ولماذا يشكك آخرون في قصص البطولة، التي برغم المبالغة في بعضها، فإنها تمنحنا الثقة بأننا قادرون على التغيير؟ ألا يستحق الأمل أن نحاول من أجله مرة أخرى؟

يخيل إليّ أننا لم نعد نروي لبعضنا الآخر شيئًا حتى نطمس التاريخ، ولكن هل من حقنا فعل ذلك؟ هل نملك الحق في نسيانه؟ لا جريمة أعظم من كتم الحقيقة إلا نسيانها. لذلك، لا تبلغ حكايات النصر حقيقتها القصوى إلا عندما يرويها مهزوم.

كانت جدتي ـ رحمها الله ـ تروي لي قصة قبل أن أنام كل ليلة. وعندما كنت صغيرًا، حظيتُ بمقابلة نجيب محفوظ مع والدي، وبعد أن انفضّ اللقاء سألته عنه، فأخبرني عن حياته، ثم كانت قراءة قصصه أحد أسباب عشقي للأدب منذ وقت مبكر. أتساءل الآن: من كان يروي لجدتي ولنجيب محفوظ قصصًا

عندما كانا طفلين؟ لم أتصور أصلًا، حتى هذه اللحظة، أنهما كانا طفلين. ومن كان يُطرب مسامعهما كل ليلة بـ «كان يا ما كان؟». قد يكبر الأطفال، إلا أن القصص تبقى كما هي، تزداد طفولة كلما رواها كبار السن.

أحب جدتي ومحفوظ لأنهما علّماني أن الخيال جزءٌ من الحقيقة إن استطعنا أن نؤمن به، والمشكلات جزء من الحل إن استطعنا ألا نكرهها. لقد علّماني أنه في قصة كل إنسان سأجد شيئًا من قصّتي، وفي أفراح الآخرين فرحٌ لي، وأن العالم أكثر رحابة من ضيق صدورنا، وفي الحياة سعادة أكثر من شقائنا. كل ما علينا فعله هو أن نستمر في سرد القصص، حتى يعرف المنكسر أنه ليس وحيدًا، وأن النهايات تكون سعيدة دائمًا؛ إن تقبّلناها كما هي، لا كما نتمنّى.

جلس على طرف السفينة ورجلاه متدليتان فوق الماء، كعادته، كلّما توقفت الرياح عن دفع السفينة إلى الأمام. عندما يحصل ذلك في المساء فإن الحياة تتوقف على سطح السفينة ليستمتع البحارة بحياة أخرى في أسفلها. أما هو فقد سئم الجلوس معهم، فأحيانًا، يحتاج الإنسان إلى الاستمتاع بالهدوء، وصوت الفراغ الذي لا نسمعه إلا إذا كُنا وحدنا.

أطبق السكون على المكان، وبعد أن توقفت السفينة تمامًا توقّفت أحلام الفتى سعيد عن الإبحار أيضًا. جلس ينظر إلى البحر، اقترب منه والده وجلس إلى جانبه دون أن يقول شيئًا، فاحترام الوحدة هو أحد حقوق الإنسان النفسية. لاحظ سعيد شيئًا يتلألأ في القاع فصرخ: «ما هذا يا أبي، هل هي حورية؟»، رد عليه : «إنه انعكاس ضوء القمر على قاع البحر».

ـ ولكن كيف يعكس الرمل ضوء القمر؟

ـ ليس رملًا، إنه ذهب.

ـ ذهب؟!

ـ نعم، إنها حكاية قديمة.. لقد غرقت إحدى سفن شركة الهند الشرقية قبل مئتي عام ولم يستطع أحد أن يحدد مكانها. كانت محملة بالذهب والمجوهرات ومتجهة إلى الهند.

قاطعه سعيد:

ـ لنغطس إذن ونستخرج الكنز.. إنه رزقنا.

ـ أعلم أنه رزقنا ولكنني سبق أن حصلت عليه.

تجاهل سعيد تلك الجملة واستمر في إلحاحه:

ـ لنخرج الصناديق من البحر ونعودَ أدراجنا.. لقد تعبنا من السفر والترحال. لا بد أن في هذه الصناديق ما سيجعلنا أغنياء أبدًا.

رفع الأب نظره إلى الأفق وضغط بجفونه على عينيه قليلًا وقال:

ـ هل سمعت عن البتراء يا بني؟

ـ كلا!

ـ عندما كنتُ صغيرًا ذهبت مع أبي في رحلة إلى الشام، وعندما وصلنا إلى شمال الجزيرة العربية، مررنا بمدينة محفورة في الجبال، فأخبرنا الدليل الذي كان معنا أن هذه البيوت الجبلية قد حفرها العرب الأنباط الذين سكنوا تلك المنطقة قبل آلاف السنين. كان الأنباط يحفرون الأبواب الخارجية ثم يشقون الممرات الرئيسة، ثم يحفرون الغرف وهكذا حتى تكتمل البيوت

في باطن الجبال. إلا أن الغريب في الأمر أنهم لم يسكنوا تلك البيوت قط، واتخذوا بيوت الشَّعر والخيام مسكنًا لهم.. أتعرف لماذا؟ لأنهم كانوا يظنون أن العربي إذا توقف عن العمل فسيفقد صبره، وإذا فقد صبره فإنه سيفقد بأسه ويموت في تلك الصحراء القاحلة.. لذلك كانوا يحفرون كل يوم.

ـ وما دخل هذا بالكنز؟

ـ عندما أراني أبي هذا الكنز قبل عشرين عامًا قال لي إنه أخذ جزءًا منه وترك الباقي لي لأستخرجه بنفسي، فقلت له إنني لن أعرف الطريق إليه مرة أخرى. ضحك وقال إن علي أن أستمر في الصيد وفي البحث عن اللؤلؤ حتى أقترب من الكنز. وفي يوم من الأيام، وبينما نحن ننتظر هبوب الرياح رأيته، غطست من فوري وأخذت بعضًا منه وتركت الباقي.. تركته لأنني أريد أن أذهب إلى الغوص مرات أخرى، أريد أن أبتعد وأسافر وأرى العالم.. وأردتُ أن تذهب أنت إلى الغوص أيضًا.. فهناك الكثير لتتعلمه من البحر.. لا أريدك أن تفقد صبرك، فمن دونه لن تكون لحياتك قيمة.

بدأ خَدُّ الأفق بالاحمرار معلنًا نهاية الليل.. هبّت ريح خفيفة.. امتلأت الأشرعة بالرياح وامتلأت القلوب بالأحلام مرة أخرى. وضع الأب يده على قلب ابنه وقال له:

ـ لنبدأ العمل، فكنزك يكمن ها هنا.

عندما كنتُ طالبًا في الجامعة ذهبتُ إلى أحد المختصين في التطوير الذاتي ليساعدني على إلقاء الخُطب العامة في المناسبات؛ فلقد كنتُ حريصًا على تمثيل بلدي في مختلف المحافل.

بدأنا الحوار، فسألني عن مشكلتي. قلتُ له إنني أشعر بتوتر عندما أقفُ للتحدث أمام الجمهور، فقال: «تخيل أنك تصعد الآن خشبة المسرح لتلقي كلمة، بماذا تشعر؟» قلتُ: «إنني أشعر بالارتباك»، فقال: «أنت الآن واقفٌ وستبدأ الحديث، ماذا يدور في خاطرك؟» «خائفٌ من أن أقول شيئًا خطأً».. أجبتُ.

قال: «لقد أخطأتَ الآن، بماذا تشعر؟»، فقلتُ «بالارتباك»، فسألني: «وبعد الارتباك؟» فقلتُ: «إنني مُحرجٌ الآن جدًّا أمام الناس»، فسألني: «وماذا بعد الإحراج؟» ظللتُ أفكر في سؤاله لأنه لم يخطر على بالي من قبل، فقلتُ: «لا شيء!».

ابتسم وقال: «فعلًا، لا شيء.. الحياة لن تتوقف إن أخفقنا، ولن يتصدر خطؤك الصفحات الرئيسة أو نشرات الأخبار، بل إنني

أشك في أن أحدًا من الحضور سينتبه له. أنتَ تحب هذا العمل، لكن خوفك طغى على ذلك الحب. انتهى الأمر، يمكنك أن تتصرف الآن».

خرجتُ من عنده وأنا أفكّر، إلى هذه اللحظة، في مدى سذاجة الإنسان عندما لا تتعدى رؤيته حدود ضعفه، متناسيًا أن قدراته لا حدود لها. وكلما همّني أمرٌ وتوقفتُ عند نتائجه السلبية، أو عند عدم استطاعتي تخطيه، تذكرتُ كلامه «الحياة لن تتوقف إن أخفقنا».

وقبل عدة سنوات حضرتُ دورة تدريبية لتنمية القدرات الفردية، وخلال أسبوع كاملٍ قضيته مع مدربة امتلأ رأسها بالشعر الأبيض والحكمة، تعلمتُ منها أشياء كثيرة كان أهمها أنها عرفتني إلى نفسي لأول مرة، وأظهرت لي كل الأشياء الدفينة التي كنت أتحاشاها دون أن أشعر. إلا أنها لم تقف على نقاط ضعفي كثيرًا، بل ساعدتني على التعرف إلى مكامن القوة فيّ وكيف يمكنني أن أستثمرها لتطوير ذاتي.

وفي آخر يوم قالت لي: «إن معظم الناس يبحثون عن نقاط ضعفهم لتقويتها، ومع مرور الزمن، ينسون تنمية نقاط قوتهم، إلى أن يتساوى لديهم الضعف والقوة، ويظل أحدهم عاديًا لا يميزه شيء. إن أردتَ أن تتغير، ركز على تقوية نقاط قوتك، وانسَ نقاط ضعفك، لأنها ستتحسن مع الوقت».

وهذا ما فعلتُه خلال سبع سنوات، حتى وصلتُ إلى نتيجة مفادها أن إحدى مشكلاتنا أننا نعرف ضعفنا أكثر من قوتنا، ونتذكر هفواتنا أكثر من نجاحاتنا، وندرك ما لا نستطيع فعله، أكثر من إدراكنا ما نستطيع القيام به، ونعلم الأشياء التي نخفق فيها ونجهل الأشياء التي نتقنها.

أؤمن كثيرًا بأهمية تغليب العقل في اتخاذنا لقراراتنا في الحياة، ولكن في المواقف الحرجة فإنني أؤمن أكثر بدور القلب، لأنه البوابة التي تنفذ الطاقة الكونية من خلالها إلينا. الوجود مليء بالطاقة والنور، إلا أنهما لا يطرقان الأبواب المغلقة. والقلب لا يعرف المجاملة أو النفاق، حتى حين تجترح عقولنا أسوأ الكذبات، تُحدثنا قلوبنا بأننا على خطأ، ومن يتقن لغة قلبه لا يمكنه أن يكون على خطأ.

قرأتُ مرة أننا لسنا الأسماء التي نحملها، ولا المنازل التي نسكنها، ولا الأموال التي نملكها، ولا المناصب التي نتقلدها. قد تصفنا هذه الأشياء ولكنها لا تصنعنا؛ فهي ليست حقيقتنا.

نحن أكبر بكثير من هذه الصفات السطحية، وأرواحنا أكثر عمقًا من حاجات الحياة وأشيائها. تقول الحكمة: «لا يوجد إنسان ضعيف، ولكن يوجد من لا يعرف مكامن قوته»، وأسوأ منه من ينسى أن يبحث عنها.

عندما لا نعرف أنفسنا جيدًا فإننا نعجز عن تنميتها وتطويرها، ولذلك فإنها تكون هشة أمام أبسط تحديات الحياة التي تواجهها، فالجاهل بنفسه، الغريب عنها، لا يقدّرها حق قدرها، ولذلك فإنه يجهل كيف يساعدها للخروج من أزماتها.

أما الناجحون فهم من يوقنون بأنهم يستحقون النجاح؛ وهذه الفكرة كافية لتدفع طاقاتهم الداخلية إلى حدّها الأقصى. إن من يعرف نفسه حق المعرفة لن يضطر إلى التمثيل أمام الناس، ولن يلبس أقنعة ليخفي عيوبه، فهو يدرك أن أجمل حالات الإنسان حينما يكون على سجيته، مضطربًا كان أم مستقرًا، حزينًا أم سعيدًا، ضعيفًا أم قويًا. فالناس لا تحب من يلبس الأقنعة؛ لأنه حينها لا يكون إنسانًا، أو حتى شيئًا.

البُرْج

يقفُ مُشرئبًا وسط المدينة، يحتضن العالم كطفل عملاق، أو يهمس في أذن الغيمات كعاشقٍ متيم بالنجاح. بعض معالِم الدُّنيا تنظُرُ إلى الماضي، وبعضها تنظر إلى المستقبل، أما بُرج خليفة[1]، فإنه ينظر إلى الماضي ليفهم المستقبل.

عندما تصعد إلى قمّة برج ما فإنك قد تستطيع أن ترى العالم، أما مِن قمة بُرج خليفة، فإنه يمكنك أن تضمّ العالم بين إبهامك وسبابتك.. هذا ما يقوله سُكّان دبي. تبدو الأشياء، مِن قمة أعلى مبنى شيده الإنسان حتى الآن، صغيرة جدًّا، لا بسبب علو المسافة، بل لعلو الهِمّة.

لماذا يبني الإنسان الأبراج؟ سؤال يراودني كُلما زُرتُ إحدى المدن الناطحة للسحاب. هل هو ضِيق مساحة المدن الذي اضطر الإنسان إلى التوسع بشكل عمودي؟ رُبّما، ولكن الأكيد هو أن الإنسان قد اعتاد الصعود، وأدمن الارتقاء إلى

---

(1) أعلى برج في العالم، موجود في مدينة دبي.

الأعلى، لا لكي يسكن ويعمل، بل لأنه أدمن تحقيق الأحلام، فالأحلام الحقيقية لا تهبط على الإنسان، بل هو الذي يصعد إليها.

عندما يصعد أحدنا جبلًا فإنه يعلم أن أحدًا لن يأبه لإنجازه ذاك، إلا إذا كان الجبل هو إيفرست، لا لصعوبة تسلقه فقط، ولكن لشهرته أيضًا. هناك جبالٌ مجهولة أقسى من إيفرست، إلا أننا لم نسمع عنها، لكن بعض الناس يُصرّ على تسلقها ثم يشعر بالإنجاز حتى وهو يعلم أن أحدًا لن يعلم به. «الإنجاز الحقيقي هو الذي يتحقق في داخلنا» جملة مُبْتَذَلة، ربما، ولكنني أتساءل: ما الإنجاز؟

الإنجاز عند متسلّقي الجبال هو تغلّب الإنسان على نفسه، لأنهم يؤمنون بأن من استطاع أن يتغلب على نفسه، فإنه قادر على التغلب على كل شيء آخر. فغالبًا ما يصل المتسلق إلى نقطة ما تنعدم بعدها إمكانية الصعود. هذا ما تقوله نفسه، ينظر حوله وفوقه فلا يجد حفرة مناسبة ليغرس فيها يده أو رجله.. حينها، يُفكّر في النزول، ثم يتذكر «الإنجاز الحقيقي هو الذي يتحقق في داخلنا» فيرى حُفْرة صغيرة لا تتسع إلا لإصبع واحدة. لا تقف المشكلة عند حجم الحفرة فقط، بل إن عليه أن يقفز فوق هوّة سحيقة أولًا. لديه محاولة واحدة، مرة واحدة فقط وقد تنتهي حياته.. أو قد تبدأ من جديد. هل سمعتم عن قفزة

الإيمان؟ إنها الخطوة التي يقدم عليها الإنسان وهو يعلم أنها قد تكون الأخيرة.. «أعرف رجالًا قفزوا وسقطوا..» هذا ما توسوس به نفس المتسلق.. فيرد قلبه: «سقطوا لأنهم أغمضوا أعينهم وظنّوا أن الملائكة ستحملهم على أجنحتها». فتقول نفسه: «أوليس الملائكة حولنا لحمايتنا إذًا؟»، يضحك قلبه ويجيب: «إن كل ما يمكنهم فعله هو أن يشيروا إلى الطريق الصحيح، ثُمّ يُصلّوا حتى نصل». يفتح عينيه ويقفز قاطعًا هُوّة الشكّ بالإيمان.. يختفي كل شيء أمامه، يتقزّم الموت، يتسطّح الجبل، وتبقى الفتحة الصغيرة وحدها أمام عينيه.. يغرس إصبعه دون أن ينتظر، ثم يكمل الصعود وهو يضحك. يحني رأسه احترامًا للذين دلّوه على الطريق، يطوي ابتسامته ويمضي.

يعتقد الذين عايشوا مرحلة بناء بُرج خليفة أن شركات المقاولات لم تبْنِه، بل بناه كل الحالمين الذين يعيشون في المدينة، أولئك الذين كانوا يعدّون طوابقه وهي ترتفع طابقًا كل أسبوع، وكلما ارتفع البرج أكثر، اتسع أفق المدينة أكثر.

حكى لي أحد الذين عملوا هناك هذه الحكاية:

عندما كان العُمال يعملون في بناء البرج، توقّفوا في أحد الطوابق بعد المئة لأن مضخّة الإسمنت قد عجزت عن ضخه إلى الطوابق العلوية، فلم يسبق أن عملت مضخة على هذا الارتفاع. كان عليها أن توصل الإسمنت من الخلاطات عند أسفل البرج

حتى تصل إلى قمته. اجتمع المهندسون المشرفون على المشروع لحل المشكلة، وبعد يومين كاملين من انقطاع العمل، جمع المسؤول عن العُمّال كل من كان في المكان وقال لهم:

«لا نستطيع أن نتأخر أكثر من ذلك، لدينا جدول علينا الالتزام به. العالم كلّه ينظر إلينا وعلينا أن نوفي بوعدنا وننهي البرج في الوقت المحدد. سوف نقوم بحمل الإسمنت بأيدينا مِن آخر طابق تستطيع المضخة أن تصل إليه، ثم نوصله إلى الطوابق العلوية إلى أن يجد المهندسون حلًّا للمشكلة».

ولكي يحافظ العمال على جدول الإنجاز، قاموا بتقسيم أنفسهم إلى مجموعات تتبادل العمل طوال اليوم. بعد أسابيع تمّ حل المشكلة، إذ قامت إحدى شركات المقاولات ببناء أعلى مضخة إسمنت في العالم. وبعد أن انتهى بناء البرج، اكتشف المهندسون شيئًا غريبًا، صار البرج أعلى من ارتفاعه المخطط له قليلًا، وعندما فحصوه وجدوا أن الطابقين اللذين بناهما العمال بأيديهم كانا أعلى بثلاثة أمتار. سألوا رئيس العمال عن السبب، فضحك وقال: «عندما يحب أحدنا شيئًا فإنه يبنيه بيديه، وعندما يبني الإنسان بيديه فإنه يبني أكثر». لا أعلم مدى صحة تلك القصة، لكنني أعلم أن برج خليفة سيظل أعلى من كل شيء صنعه الإنسان لفترة طويلة من الزمن. لم يعلم أحد ما ارتفاع البرج الحقيقي حتى يوم إطلاقه، فالغموض يجعلنا نُلحّ في طلب

الأشياء، ليس لأنها جميلة، ولكن على أمل أن تكون كذلك.

«إن الأحلام التي تُفسَّر لا تتحقق، فليس من الضروري أن تفهم حلمك لكي تحققه، ويكفي أن تؤمن به حتى تصل إليه..»، هذا ما قاله رئيس العُمّال. يعتقد الناس في دبي أنه إذا أردتَ أن تبني شيئًا فعليك أن تَحلُمَ به أولًا.

للانتظار طعمٌ آخر عندما يكون على رصيف قديم، مزدحم بالناس والمشاعر، تتجاور على صفحته أقدام المارة والحَمَام. يُخيّلُ إليَّ أن بعض المدن بُنيت من أجل أرصفتها، فالرصيف فيها الملجأ الذي يرتمي عليه الهاربون من شظف العيش، وثقل المسؤوليات.

في تلك المدن، تتزين الأرصفة بالأمنيات، وتتعطر أجواؤها بعبق القهوة التي تُقدّم مع أول خيوط الشمس وآخرها، تحت ظلال الأغصان المنتشية بالحياة. أحد أجمل الأحاسيس التي تخالجنا هو عندما تمتزج رائحة القهوة الصباحية برائحة أوراق الأشجار المُبللة بأمطار الليلة الماضية.

للأرصفة حكايات تنتظر أن تُروى؛ حكايات الشحاذين وقصص العاشقين. فلا تكاد تخلو الأعمال الروائية العظيمة من رصيف دارت عليه أحداثٌ جسام، تنوّعت بين اللقاء والفراق، بين سقوط القنابل وتفتح الأزهار.

للرصيف مكانةٌ عند المنتظرين؛ فانتظار الأحباب يجعل من

الأرصفة أحبابًا آخرين، لا نعرف قدْرهم حتى نفارقهم. قد ننسى كثيرًا من الذكريات، ولكننا لا ننسى الأرصفة التي جمعتنا يومًا بمن نُحب. تخيلوا مدينة تخلو من أرصفة.. يا لسذاجة الانتظار حينها، ويا لكآبة المكان!

رصيف الميناء مسرح من مسارح الحياة، أبطاله العتالون المنهزمون، والربابنة الأباطرة، الظالمون في أغلب الأحيان. الجمهور الوحيد على أرصفة الموانئ هو السفن، إلا أنها لا تعرف كيف تبكي أو تصفق، لكنها تعرف كيف تصدأ وتتشقق.

رأيتُ مرة عتّالًا فقيرًا في أحد الموانئ وهو يبحث في صندوق القمامة. توقفتُ وحاولتُ أن أعطيه بعض النقود، فرفض، وعندما سألتهُ عن السبب قال لي إن ربان (السفينة الخشبية المهترئة) التي جاؤوا عليها يرفض أن يأخذ أحد أفراد طاقمه صدقة. فسألته: «لماذا إذن لا يُعطيكم ما يكفيكم حتى لا تحتاجوا إلى الناس»، فقال: «لكي نبقى في حاجة دائمة إليه». لو قُدّرَ لروائي أن يقضي وقتًا على ذلك الرصيف لكتب مسرحيات تراجيدية ربما تكون أفضل من أعمال شِكسبير.

عندما نسافر يصبح الرصيف ورقة بيضاء نكتب عليها بخطواتنا ما نتمنى، ثم نعود بعد عام لنعيد الكتابة على الرصيف نفسه، لا لكي تتحقق الأحلام؛ ولكن حتى لا يبهت لونها. يظن الناس أن أحجار الأرصفة تتشابه، لكنها ليست كذلك، فهي

كبصمات الأصابع، يُخيّلُ لنا من جَهْلنا أنها متطابقة. إن الفروقات بين الأصابع وأحجار الأرصفة ليست في الشكل فقط، بل في ثقل الآلام التي احتملتها عبر السنين. الأرصفة لا تعرف التلفيق، لكنها لا تعرف الكلام أيضًا؛ ولذلك فإنها أقرب شيء للأحلام، نحبها كثيرًا لكننا نعجز عن شرحها للآخرين.

كم تُشبه بعض الأرصفة عقول المتشائمين، لا يكسوها سوى الأبيض والأسود، ويكفي أحدهم أن يرفع رأسه ليرى الألوان البهية التي تنتشي بها الحياة من حوله، لكنه ينسى فعل ذلك. تمنيتُ لو كان بيدي سلطة تلوين تلك الأرصفة؛ لمنحتُ كل عابرٍ فُرشاة وتركته يختار اللون الذي يحب.

الرصيف هوية المدينة، وأحد مقاييس تحضر سُكّانها. تأسرني المدن المرصوفة بعناية، تلك التي تدعوك لاستخدام قدميك بقدر ما تستخدم عقلك.. كم يستفزنا الرصيف للمشي والتفكير؟ إن أسوأ المدن هي التي تحرمك من استخدام قدميك أو عقلك أو كليهما.

في المدن المرصوفة، يُستخدم الرصيف لمنح الناس فرصة للتأمل، وفرصة للرياضة، وأخرى للفرجة. وعند زيارتك لإحدى المدن اليابانية أو الفرنسية أو الإيطالية؛ ستجد أنهم يهتمون بالأرصفة أكثر من الشوارع، لأن الأرصفة للبشر والشوارع للآلات.

تبدو أغلبية مدننا العربية كئيبة لأنها تكاد تخلو من أرصفة، وتلك الموجودة لا تمنحك الأمان للمشي عليها، فهي إما ملغومة بحفرة دون غطاء لتصريف المجاري، أو ضيقة وقاصرة كطفل لم يكتمل نموه. كم هي سيئة تلك المدن التي لا تحترم من يحاول عبور الشارع من مكان خطوط المشاة. إن من يعبر الشارع في مدينة عربية كمن يعبر المحيط الأطلسي بقارب صيد.

الأرصفة تجاعيد المدن، كلما اهترأت انهالت الشيخوخة عليها. لا يكفي أن نعيد طلاء الرصيف مرة كل عدة أعوام؛ نحتاج إلى عمليات تجميل كثيرة حتى نعيد لمدننا نضارتها.

يا لوفاء الأرصفة، يبصق عليها الإنسان، ويرمي عليها مخلفاته، وتظل تحمله حتى عندما يُفقده الحزن القدرة على حمْل نفسه. لكل إنسان حكاية مع رصيف، وعلاقة وجودية لا يكتشفها إلا عندما يبقى وحيدًا، أو يُردُّ إلى أرذل العمر.

عندما تباغتك الشيخوخة، وتفقد القدرة على استرجاع ذكرياتك الجميلة، وتنسى أين وضعتَ دفاتر مذكّراتك، فاطلب من أحدهم أن يخرج بك إلى الرصيف؛ فالأرصفة لا تنسى ولا تعرف الكذب. سألني أحدهم: «هل الرصيف هو الحقيقة؟» فقلتُ له: «وقد تكون الحقيقة هي الرصيف».

شرْيان الماء

يستيقظ في أحلك ساعات الليل، تلك التي تسبق الفجر بقليل. يفعل ذلك لأنه يحب أن يشهد معجزة انتصار النور على الظلام كل صباح. يوقظ الشمس بدعائه فيُحلّق الإيمان في السماء كرحيق الزهور. يتمتم بكلمات من القرآن فينساب النهار من بين أصابعه.

اعتاد أن يوقظ الشمس ليغزل من أشعتها خيوطًا معقودة بالأمل بصيد وفير. لا يهمه أن يكون الصيد كثيرًا، بل كافيًا، فالأشياء الحلوة كُلما زادت قلّت. يتقدم إلى ضفة الخور[1] بصمت وفرح، يحيّي البحر كما تعود أن يفعل كل يوم، فذلك أحد آداب التعامل مع البحر كما كان يقول لأبنائه دائمًا. يفرش خيوطه على الشاطئ ثم يغمس رجليه في الماء حتى تبتلا قليلًا وتألفا المياه الجديدة.

يعتقد أن علاقته بالبحر تشبه علاقته بالقدر، عليه أن يؤمن به

(1) عُنُقٌ من البحر يدخل في الأرض.

أكثر مما يثق به، ولكي يفهمه فإن عليه أن يتحدث معه كل يوم. بعد أن انتهى من السلام عليه، وبينما كانت رجلاه تغوصان في المياه تدريجيًا مع ارتفاع منسوبها، أخذ الصياد يخبر البحر عن أمنياته. لم ينسَ أن يقول له إنه راضٍ بما كُتب له من رزق. كان الصيادون يتهمونه بالجنون كلما رأوه يفعل ذلك، فيقول لهم إن لكل شيء في الحياة لغة، حتى الجمادات التي لا روح فيها. ولكي يفهم بعضنا لغات بعض فإن علينا أن نقبل بالآخر حتى إن لم نكن نحبه.

استأذن الصياد البحر في رمي شباكه، قرأ دعاء الصباح وبعض آيات من القرآن، ثم لوّح بخيوطه المهترئة عاليًا في الهواء في حركة نصف دائرية اعتادها جسده الممتلئ بتشققات السنين وجفاف العواصف. غمرت المياه نصف جسده، بدأت الأمواج تباغته شيئًا فشيئًا، لكنه بقي واقفًا مكانه كصارية السفينة التي تميل مع الهواء حتى لا تنكسر، لكنها لا تميل كثيرًا فتقلب السفينة رأسًا على عقب. يعلم أن الصياد الماهر يحذر من الأمواج لكنه لا يخشاها.

وقف على أحد جانبي خور دبي الذي يشقّ المدينة إلى ضفتين. نظر حوله فلاحظ أن عدد السفن الخشبية قد ازداد على رصيف الميناء الصغير الذي يزوّد المدينة بحاجاتها من البضائع. لم يلحظ قبل اليوم أن أحجام السفن قد بدأت تكبر أيضًا. قبل

سنوات كانت مياه الخور ضحلة جدًّا لدرجة أنها عندما تنحسر بسبب الجَزْر، كان الناس يقطعون الخور مشيًا على الأقدام، وكان على السفن أن تنتظر ارتفاع المد حتى تستطيع أن تخرج منه أو تدخل إليه.

وفي يوم من الأيام، أيقن حاكم دبي الأسبق، الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم، أن الخور هو الشريان الذي يزوّد مدينته بالحياة. استشار وجهاء المدينة الصغيرة آنذاك لتوسعته وحفره حتى تسهل حركة السفن. بعد سنوات قليلة، أصبح الخور إحدى الوجهات الرئيسة للسفن التجارية التي تجوب مياه الخليج العربي، وتحولت دبي إلى مركز تجاري في منطقة الشرق الأوسط. عندما اتسع الخور اتسع أفق الإنسان في المدينة. استطاع أن يفهم الآخر، أن يحترمه، أن يحبه فقط لكونه إنسانًا.

شعر الصياد بشباكه تتحرك تحت يديه فأيقن بأن الأسماك بدأت تعلق بها أسرع مما توقّع، فكلما كانت المياه عميقة تدفقت الأسماك أكثر. سحب شباكه وإذا هي مليئة بأسماك تزيد على حاجته. قرر أن يُبقي على ما يكفيه منها لذلك اليوم ومجموعة أخرى ليبيعها في السوق وأعاد الباقي إلى المياه. سأله أحد الصيادين الواقفين بجانبه عن السبب فقال:

ـ لا أحتاج إلى أكثر من هذه السمكات.

- ولماذا لا تُبقي على الباقي أو تبيعه وترتاح من الصيد عدة أيام؟

- لأن هناك غيري من الصيادين مَن يحتاج إلى الأسماك مثلي.

- لكن البحر به ما يكفي من الأسماك للجميع!

- أعلم، ولذلك أخذت منه ما يكفي.

أكمل سحب ما تبقى من شباكه وشرع عائدًا.. قبل أن يُغادر المكان التفت إلى صديقه وقال:

- هناك شيء آخر.

- ما هو؟

- هل ترى كل تلك السفن؟ هل تعلم لماذا يزداد عددها كل يوم؟

- لأن الخور صار أعمق.

- كلا، بل لأن الناس تأتي إلى رصيف الميناء كل صباح.

إن اليوم الذي نتوقف فيه عن الخروج من المنزل نتوقف فيه عن الحياة.

كل صباح

أقول لنفسي في كل صباح إن السقوط أولى مراحل الصعود؛ لأنه لا يسقط إلا من يرتفع، ولا يتعثر إلا من يستمر في المسير. ما أتعس الواقفين في أماكنهم؛ لا يدركون جمال المنظر من الأعلى، ولا يستنشقون أوكسجين الحياة المبعثر على جانبي الطريق. الواقف في مكانه ميت مع وقف التنفيذ.

عندما أستيقظ في الصباح ويتسلل الخوف إليّ، أوقن بأنني أفعل شيئًا مهمًا؛ لأنه لا يخاف إلا المغامرون، أما الذين يقبعون في بيوتهم فليس لديهم شيء يستحق الخوف، أو يستحق الحياة. لا تكمن الشجاعة في غياب الخوف، لكنها في القدرة على تحويله إلى رغبة جامحة في الانتصار.

عندما أفشل في الصباح أشعر بأنني مُلْزَم بالمحاولة مرة أخرى؛ فالفشل ليس إلا إحدى محطات النجاح؛ فقط إذا كنا نسير على الطريق الصحيح. الفشل خيوط سوداء، والنجاح خيوط بيضاء، إذا تداخلت صارت ثوبًا جميلًا، أو وشاحًا نتباهى

بلبسه أمام الناس. كل ساعة سعادة تعادل سنوات من الحزن والأسى، ومع كل كسر تأتي فُرَص للرَّتق، ومع كل نهاية تنبتُ رغبة في أعماقنا ببداية جديدة، تمامًا كتلك التي نشعر بها عند انتهائنا من البكاء. اقرأ التاريخ لتصدّق هذه الحقيقة.

إذا كان الصباح بداية جديدة فلماذا نخشى النهايات؟ وهل النهاية إلا بداية أخرى؟ لكنها لا تُمنح إلا لمن يستحقها، ذلك الذي يظل يحلم بها. لا يمكنك أن تخطط للبداية فهي تأتي رغمًا عنك، تهطل في حياتك فجأة، كالمطر. عندها تكون أمام خيارين: إما أن تهرب وترضخ لحُكْمه؛ فتختبئ تحت مظلة أحد المَحالّ إلى جانب الجبناء الآخرين، وتكتفي بمشاهدة المارة الذين شغلتهم أحلامهم عن البلل. وإما أن تتصالح معه، وتستمتع بزخاته وهو يغسلك كحصان أنهى السباق لتوه واحتاج إلى تنظيف. إن من يخشون النهايات لن يستمتعوا بالفرحة الغامرة التي تسكبها الحياة على من يجتازون خط النهاية.

في كل صباح أقرر ألا أخطط لذلك اليوم. اسأل نفسك الآن: منذ أن بدأتَ تخطط لحياتك، كم مرة جرت الأمور كما خططتَ لها؟ إن من يؤمن بالخطط كثيرًا لا يؤمن بحتمية التاريخ التي قال في سياقها الفيلسوف الألماني هيغل: «إن التاريخ عملية طويلة مقدرة بقدر، يأخذ فيها كل طرف مكانه ومبرراته».

حيث يعتقد هيغل أن لكل عصر روحًا تسيطر على الأفراد، وتستعملهم لمصلحتها الخاصة؛ من أجل تحقيق إنجازات حتمية لا بد أن تظهر في زمانها، رغمًا عن الإرادات الفردية لأبطال التاريخ الذين يعيشون تلك المرحلة الزمنية. ثم يختم كلامه: «وما إن ينتهِ دور تلك الشخصيات وكفاحها من أجل تحقيق الغايات الكونية لروح العصر، حتى تختفي من مسرح التاريخ دون أن تحقق سعادتها الخاصة». سعادتنا الخاصة، يا صديقي هيغل، هي الفرحة التي تأتينا دون شروط.

في كل صباح أقرر أن أرتجل يومي قدر المستطاع، فلا شيء أجمل من المرء عندما يكون على سجيّته، نقيًّا من كل تصنُّع، مُجردًا من كل تاريخ «مكتوب»، مُتجردًا من كل الأزياء التنكرية. ارتجال الحياة هو الخط الفاصل بين الحرية والعبودية، هو القمة التي نطلّ من فوقها على حقول المشاعر الصادقة، تلك التي نبتت بفعل أمطار المحبة والبساطة، ولم يكن للمدنيّة فضل ريّها و«تهذيبها».

كل صباح أعاهد نفسي على ألا أغضب، أو أحكم على الناس، أو أتدخل في شؤونهم. فالغضب جيفة الأخلاق، والهاوية السحيقة التي تبلع في عتمتها كل ما تعلمناه عن المحبة والتسامح. أما الحكم على الناس فإنه قيام أحدنا بتخدير نفسه من خلال إلصاق علّاته وهفواته بالآخرين. الحكم على الناس

يعني أنك إما أن تكون أكثر علمًا وفهمًا وحكمة وإيمانًا وطُهرًا وبراءة وأمانة وصدقًا منهم، وإما أن تكون ضعيفًا وجاهلًا لدرجة أنك تعتقد أن اغتيابهم سيجعلهم أقل منك. في الصباح أقرر ألا أتدخل في شؤون الناس حتى لا أفرح بمصابهم فأخسر إنسانيتي واحترامي لنفسي، وحتى لا أغار من نجاحهم فأنشغل بهم عن الاستيقاظ كل صباح.

في كل صباح أعاهد نفسي على أن أفرح وقت الفرح، وأحزن وقت الحزن، ألا أُقحم العاطفة في العقل، وألا أنزع العقل من العاطفة، أن أطلق لنفسي العنان لتكون جزءًا أصيلًا من هذا الكون الشاسع، تهيم في فَلَك الإيمان، تنسجم مع نواميس الوجود دون حدود، تُصّدِق، تُخدَع، تنكشف، لتسعى وتكتشف؛ أن كل ما نقوم به في هذه الحياة ما هو إلا محاولات عظيمة الأمل، كثيرة الوَجَل، لنجعل كل صباح أجمل من كل صباح.

يأسى أحدنا على نفسه كثيراً، يَغْرقُ في انكساراته، يحزن على حاله، ثم ينتهي به المطاف برثاء حياته وهو ما يزال فيها. هَمٌّ عارِم يعصف بالبشرية، وعلى رغم المُلهيات، ووسائل الترفيه، وتنوع العلوم والمعارف وسهولة الوصول إليها، ما زالت النفوس مُنْكسرة، مُختقنة، لا تدري لماذا، وإلى متى. بحثتُ كثيراً عن مفهوم السعادة، فأدركتُ أنها ليست شيئاً نصل إليه، هي ليست إحدى محطات الطريق، بل الرحلة ذاتها. هي قدرتنا على بناء عوالم خاصة بنا عندما يدخل القطار نفقاً مظلماً، فنظلّ نفكّر متى سيخرج منه، وماذا يوجد في نهايته.. وأياً كانت الإجابة، فإن كل شيء بعد النفق سيكون حتماً جميلاً. "يُحكى أنّ" جملةٌ مُذْهلةٌ، تفتح نوافذ الكون، وتدخُل بنا إلى عالم غريب، مشوّق، يصير فيه الخيال كالنور؛ يطوّقنا من كل مكان. قبل أن تُعيد الكتاب إلى مكانه أو تقتنيه، أتمنى أن تقرأ هذه القصة:

يُحكى أنّ رجلاً اصطاد عصفوراً ووضعه في القفص، فقال له العصفور: "يا سيدي، ماذا سيفعل لك لحمي مقابل لحوم الأبقار والأغنام التي تأكلها؟ لن يفيدك بشيء. أطْلِق سراحي وسأعلّمك ثلاث نصائح ستغير حياتك إلى الأفضل. لكنْ لِي شرط: أن أخبرك بالنصيحة الأولى وأنا في قبضة يدك، وبالثانية من فوق السياج، وبالثالثة وأنا على الشجرة؟". وافق الرجل وأمسك بالطائر في قبضة يده، فقال العصفور: "النصيحة الأولى، لا تُصدّق المُحال أبداً". أطلقه الصياد فطار وحلّ فوق السياج وقال: "النصيحة الثانية، لا تندم على ما فات أبداً". وعندما حطّ على الشجرة أراد أن يختبر الصياد فقال له: "توجد في بطني جوهرة ثمينة، لو شققته وأخرجتها لكنت سعيد الحظ غنياً". فتألّم الصياد كثيراً وتحسّر وأخذ يؤنّب نفسه، ثم قال: "إذن هات النصيحة الثالثة". فرد العصفور: "ألم أقل لك لا تصدق المحال أبداً؟ فكيف صدّقت أن في داخلي جوهرة؟! ثم إنني نصحتك بألا تندم على ما فات، وبرغم ذلك أخذت تشقّ ثوبك من الحسرة.. قُل لي يا سيدي بمَ ستنفعك النصيحة الثالثة؟".





مــدارك Madarek
دار مدارك للنشر
Madarek Publishing House